روايات الهلال

د. إبراهيم إسحاق

صنعاء.. الوجه الآخر

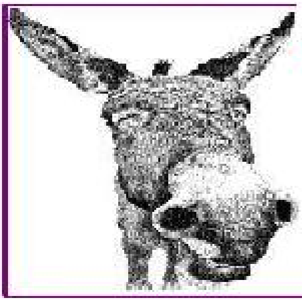
إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية.
الكتاب العرب معترين والكل يستوطي حيطهم، دعمنا لهم يضمن إستمرار عطاءهم
http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية.
الكتاب العرب معترين والكل يستوطي حيطهم، دعمنا لهم يضمن إستمرار عطاءهم
http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

صنعاء ..
الوجه الآخر

بقلم

د. إبراهيم إسحاق

دار الهـــلال

الغلاف للفنان :
محمد حجى

الإنفجار

ماذا يعمل طفل مثلى فى عمر الزهور ، وكيف يفكر ؟!

أنا الآن فى حوالى السادسة والنصف من عمرى .

مدينتنا خالية تماما من أى شارع مسفلت .

لا أستوعب كثيرا مما يجرى حتى لو كان يمسنى من قريب .

مدينتنا – فيما أعلم – فيها مدرستان ابتدائيتان ، ومدرسة للأيتام من أعمال الإمام يحيى ، وأطلال مدرسة علمية للعلوم الشرعية ، أما بالنسبة لوسائط الإعلام فليس فى المدينة سوى الإذاعة ، ولا أدرى فيما إذا كان هناك صحف ومجلات أم لا !!

أسمع بوجود مستشفى تعالج فيه كل الأمراض ، بما فى ذلك ساحة مدورة يطلق فيها المجانين صباحا ، ولا أدرى من أين يطلقون ، ومن فوق كومة من التراب خلف جانب من السور يسمح للجمهور بمشاهدة أولئك المجانين الذين نرى بعضهم مقيد الساقين ، وبعضهم مطلق السراح فى حدود سور الساحة المحيط بهم من كل الجهات ، وأظن أن القائمين على المستشفى قد اطمأنوا بأنه ليس من مجنون واحد سيفكر فى الفرار بعيدا عن أكل وشرب مضمونين يسوقهما كل نهار أهل الخير ، وإن أى نزيل لو خرج من هذا المكان لأدركه الموت جوعا أو ظمأ ، أو بقسوة البرد والجوع معا ، ومن المؤكد أنه لاتتبع المستشفى سيارة إسعاف واحدة ، وإن وجدت فلا يوجد قسم طوارىء ، وإن وجد قسم الطوارىء فلن يتوفر المسعفون ، ولو توفر المسعفون فمن المستحيل إنقاذ حياة مريض الطوارىء لعدم توفر مواد اسعافية ، ولو وجدت المواد الاسعافية فليس هناك إمكانية لاستخدامها

عند الحاجة إليها !.

وزير الأشغال والبلديات أمير شاب ، وصديق حميم لوالدى ، يتميز كثيرا بوسامته وبساطته ، والتفاف كثير من الشباب المثقف حوله ، وقيادته سيارته الجيب المكشوفة بنفسه ، حتى قرر الإمام إبعاده بتعيينه سفيرا فى القاهرة .

يصطحب الأمير الشاب أبى معه إلى مصر رغم أن أبى ليس من موظفى السلك الدبلوماسى ، إن كان للدبلوماسية سلك فى بلدنا هذه الأيام .

ذات يوم رأيت الأمير يقود سيارته فى صبيحة نهار دافىء .. تقبل السيارة ولا أرى فى طول الشارع وعرضه سيارة غيرها .

يمر الأمير بسيارته الجيب المكشوفة وأنا أراقبها منذ سمعت صوت محركها حتى اقترب منى .. لم يكن مسرعا لأن الشارع غير مسفلت ، ولم يكن بطيئا لأن الشارع خال من أى مركبة أخرى . التفت نحوى قليلا ، ملوحا بيمينه ومبتسما ، ويواصل سيره وأنا مبتسم لابتسامته ، لكنى لا أعرف كيف أرد على تحيته ، مع ذلك اعتبرت نفسى صديقا له منذ ذلك اليوم .

* * *

اليوم الجمعة ، عادة ما ترسلنى أمى للغداء والمبيت فى الحارة القديمة عند جدتى أميمة .

بعد استقبالها لى ترسلنى جدتى لحضور صلاة الجمعة فى مسجد مجاور ، وعند عودتى تضع جدتى مائدتها الخشبية المستديرة الصغيرة لأكل وجبتى عليها ، فقاعدة المائدة لاتتجاوز شبرين .

بعد أن أصلى العصر تكون النساء الثلاث فى بيت جدى بالحارة القديمة قد تناولن غداءهن وأدت كل واحدة صلاتها فى غرفتها ، بينما أكون فى حوش البيت ، فإذا دخلت أدخل أولا غرفة جدتى أميمة لأجدها تقرأ القرآن .. أنسحب نحو غرفة عمة أمى نجية المقابلة لغرفة جدتى فتقول لى :

- أصعد لأخى فى الدور الأعلى وقل له أنك تريد سماع الراديو .

فأصعد لأجد جدى مشغولا بالمطالعة فأطلب منه سماع الراديو .

ينهض جدى ليرفع قليلا صوت الراديو ويصل خيطا ممتدا من خلف الراديو عبر النافذة إلى غرفة عمتى نجية الموجود فيها سماعة إضافية .

ثم يأمرنى جدى بالعودة لسماع الراديو فى غرفة أخته فى الدور الأسفل فأنسى ما قال ، وأنشغل بأشيائى فى غرفة جدتى .

قبيل حلول ظلام المساء تبدأ النسوة الثلاث مع جواهر ، المرأة الريفية التى تقوم بخدمة جدتى وجدى ؛ بإشعال الفوانيس لجلب بعض الضياء لغرفهن ، وحتى يمكنهن الحركة بفوانيسهن المختلفات الأشكال ولا جامع بينهن سوى استخدام الكيروسين كوقود لشعلتها ، وحتى الآن لا أعرف سببا لعدم توصيل تيار الكهرباء لدار جدى ، وهو المسؤول الحكومى الأول فى هيئة الطيران ، التى يقال إنه لايمكن ركوب إحدى طائراتها إلا بعد الحصول على موافقة الإمام .

إن أسلاك الكهرباء المكشوفة تمر على أعمدة قريبة من دار جدى ، وجوار المسجد الجامع ، وأذكر أن الكهرباء قد صعقت أحد المصلين ذات يوم جمعه ، وتتعدد التأويلات فى سبب صعق التيار لذلك الرجل ، كما تختلف وتتعدد صور وروايات نجاته من الموت وسبب تلك النجاة .

المهم أن مكانى المفضل - بعد أداء صلاة المغرب - هو غرفة جواهر التى تعودت على مناداتها (أمى جواهر) وهى الغرفة التى لم تكن مختلفة كثيرا عن غرفة جدتى وخالتى ضحى ، إلا أنها تخلو من صور الأقارب التى تزين جدار غرفة جدتى ، كما أن (أمى جواهر) تأكل مما يأكلون على المائدة نفسها ، وأظن أن الجميع محرومون من أى مصروف نقدى إلا القليل من العيد إلى العيد .

أمى جواهر تصلى فى غرفتها كالأخريات كما علمتها جدتى أميمة ، وعند التشهد الأخير من صلاتها الليلية أدرك أن الوقت قد حان فأقترب من فانوسها

المشتعل وأنفخ فيه بقوة حتى تنطفىء شعلته ثم أغرز رأسى بين فخذيها وأدرك استعجالها للخروج من الصلاة بالتسليم ، لتضحك لفعلى بصوت خفيض وهى تمسح شعر رأسى وتدعونى للنهوض حتى توقد شعلة فانوسها ، فأمانع ، وتحت إلحاحها أخرج رأسى متلفتا فى ظلام مطبق ثم أعود لأغرزه ثانية بين رجليها لكنها قد أسرعت قبلى لبسط راحتى كفيها لتتلقف وجهى ضاحكة وتقول :

- انهض وأترك عينيك مغلقتين حتى أشعل لنا الفانوس !!

وعلى نداء جدتى أسير إلى غرفتها وتأتى (أمى جواهر) بعدى ببعض الخبز والقهوة لأتعشى ، وبعدها أطلب من جدتى أن تحكى لى حكاية مما عودتنى عليه حتى أدمنت أسلوب سرد حكاياتها ، وعلى الفراش تكون أغلب تفاصيل حكاياتها الشاعرية الغامضة قد تبدد إلا صورة الأب الذى (فى آخر حكاياتها) علق قربة ماء على جذع شجرة عتيقة وتركها تقطر ماءها فى الظلام ، ليوهم ابنته التى ماتت أمها أنه لايزال يتبول غير بعيد عنها ، مع أنه قد تركها فى مكان قفر خارج قريتها لتفترسها السباع أو تهلك جوعا ، كل ذلك بسبب رفض زوجة الأب الشابة لوجود ابنة زوجها معهم فى البيت وتتدافع أمام ناظرى صورة الليل الصامت الموحش ، وعيناى مثبتتان على جدار وأطياف فوانيس جدتى حتى يغلبنى النوم .

بعد أذان صلاة الفجر ، قبل شروق الشمس توقظنى جدتى وتلاوتها القرآن ، وراتب صلاتها ، ومناداتها المتتابعة ، فأنهض لأصلى وأتناول الإفطار ، ثم أحمل كيس دفاترى الذى صنعته أمى وأتحرك نحو مدرستى لأفاجأ فى استراحة الصباح أن فى جيب سترتى قطعتى نقود تضعهما جدتى أميمة بين قليل من الزبيب والمكسرات ، دون أن تخبرنى سلفا ، فتسرنى المفاجأة كثيرا .

قبلها أفتح كيس دفاترى لأجد كعكة أتقاسمها فى فترة الاستراحة الصباحية مع أحد أصدقاء منصور ابن عمى الذى يكبرنى سنا ، فهو فى الصف الخامس وأنا فى الصف الثانى ، حيث يطلب منى إعطاء صديقه يحيى بدور من كعكة

جدتى فأعطيه نصفها ، ويبقى ابن عمى يرمقنى بعينيه ، فأعطيه من النصف المتبقى نصفا ، فلا يتبقى لى سوى ربع الكعكة الذى أتنحى به بعيدا قبل أن يشاركنى فيه أحد آخر ، حيث لايوجد بوفيه أو مقصف لنشترى شطائر أو ما شابه ، رغم ازدحام المدرسة بالتلاميذ والمدرسين ، وإذا حصل وفوجئنا بزيارة نادرة لصاحب حلوى يصنعها فى بيته ويبيعها فى صحن معدنى كبير فإن أحدا من مدرستنا لايشترى منه إلا تلميذ معه نقود ، وهذا حال نادر جدا ، وإذا حدث هذا النادر فلابد أن ينتظر زملاء هذا الشارى نصيبا من الحلوى ، فكلهم منها محروم .

* * *

لا يوجد جرس فى مدرستنا يعلن إنتهاء فترة الدراسة الصباحية لكن ، صياح تلاميذ الفصل المجاور يجعلنى أدرك – مثل سائر تلاميذ الفصل – أنه موعد انتهاء الدروس ، وعندما يطل عمنا رزق من جانب الباب ... ليقول للأستاذ بصوت هامس مسموع :

– فيطوس .

فإنه بهذه الكلمة التركيه يعلن سماح إدارة المدرسة لنا بالخروج ، لكننا ننتظر منه خبر دوام الفترة المسائية ، فإذا قال :

– وبعد الغداء قراية .

فإن معنى ذلك أن علينا العودة للدراسة بعد تناولنا وجبة الغداء فى بيوتنا القريبة من المدرسة ، وهو الحدث الغالب خلال أيام الأسبوع ، أما إذا تصادف موت فلان أو أحد أقارب المعلم أو لأى سبب آخر غير معلن ، فإن عمنا رزق يبدل عبارته اليومية ويقول :

– وبعد الغداء فيطوس .

فلا يسعنا باب الفصل من الفرح والتدافع راكضين مهللين .

* * *

كثيرة هى الأشياء فى مدينتنا التى لا أجد لها تفسيرا ، ولا أبذل جهدا فى سبيل تفسيرها من مثل أننى - بعد الانتهاء من الدوام الصباحى فى المدرسة وعودتى إلى المنزل - التحقت بفصل دراسى إضافى لمدة ساعة أقيم فى الأصل خصيصا لثلاث من بنات عمى عبدالوهاب ، وكلهن أكبر منى سنا ، وكان دوامى معهن قبل تناولنا طعام الغداء ، مع أن درسى يختلف عن درسهن .

لقد كان الأستاذ محمد المعلم هو مدرسنا نحن الأربعة وجار لنا ، كما أنه فى الوقت نفسه أستاذى فى المدرسة .

كنت أتلقى درسا فى الخط العربى وهو أيضا - فى اعتبار الأستاذ درسا فى فى مادة (الأخلاق والمحفوظات) التى يعطيها الأستاذ فى المدرسة مع دروسه الأخرى فى التجويد والنحو والحساب .

كل يوم يكتب لى الأستاذ أبيات شعر بخطه الجميل ، ويدعونى لكتابتها عدة مرات ، وحفظها غيبا ، ثم تسميعها له عن ظهر قلب ، لكن يبدو أنى لا أشعر بفارق كبير بين ما أتلقاه فى المدرسة وهذا الفصل الدراسى الاضافى الذى نتلقى دروسه فى غرفة الحارس المنفصلة عن البيت ، مع أن مدرستنا غير مختلطة (بنات مع بنين) ولا أتنافس مع بنات عمى لاختلاف دروسنا .

ذات يوم التقيت والدهن - بعد انقضاء درسنا - فى فناء البيت وهو يحمل صرة صغيرة فيها أمشاط داخل فرشاة شعر عليها مرآة صغيرة وواحدة منها فى إحدى يديه ، وعندما أسأله إذا كان سيعطينى هذه الواحدة .. يجيبنى بكل صرامة :

- هذه للبنات أنت ولد !!

مع ذلك لم أسأل أحدا : لماذا لا تذهب البنات للمدرسة ، ولماذا أصلا لا توجد مدرسة واحدة على الأقل فى مدينتنا للبنات مادامت هناك رغبة عند البعض فى

تعليم بناته .

* * *

حتى الآن لم أدرك فائدة للمحفوظات التى أتلقاها من الأستاذ محمد المعلم ، لكنى أحس بفائدة أولى حين أرى والدى يجلس معنا (أختى الأصغر منى وأمى وأنا) مساء اليوم وهو يدعونا لتسجيل حوار سيديره هو ليكون شريط التسجيل مع جدتى أميمة لتستمع إليه كلما اشتاقت إلينا .

أعلم من والدتى أننى أكثر من ستتأثر جدتى لفراقه بسبب سفرنا مع أبى إلى القاهرة ، وأرى أبى الليلة بعد غيابه عدة شهور مع الأمير السفير فى مصر عبدالناصر .

يسألنى أبى وميكرفون المسجل فى يمينه إذا كنت أعلم أننا سنسافر معه القاهرة ، فأقول :

– لقد سمعت هذا من أمى !!

يقول لى :

– هل تعرف لمن نسجل هذا الشريط ؟ فأقول :

– ربما لأمى أميمة !

– إذن أسمعنا شيئا من المحفوظات !

فأسمعه حتى أرى ابتسامته المشرقة تلمع فى عينيه وكأن فيها – مع الامتنان لأستاذى – إعجابا بولده الذى لايكتفى بمحفوظات المدرسة مع أنى لست سبب ذلك ، كما لا أهتم كثيرا لما سيصيب جدتى لفراقى فهى لن ترانى أو تسمع صوتى إلا بعد عام أو أكثر عندما نعود للزيارة مع أبى فالمهم عندى أننى سأكون فى القاهرة مع أبى وأمى وصديقى الأمير السفير .

* * *

لسبب لا أعرفه يسافر أبى برا إلى عدن بدلا عن القاهرة ، وتمضى أسابيع لا

أعرف عددها ، ومساء اليوم أسمع من أمى أن عسكر دار الإذاعة المجاورة لمنزلنا قد حجزوا أبى مع سيارة الأمير التى سافر عليها وعاد بها من عدن .

لا يثير ألم أمى وعمتى وانفعالهما بسبب توقيف أبى مشاعر ملتهبة فى نفسى وأذهب إلى فراش نومى على وعد منها برؤية أبى صباح غد الخميس .

فى غرفة نومنا (العدنية) يوقظنى فى الليل دوى انفجارات لاتعرف البلاد مثلها من قبل ، وتتحرك دبابات أمام دار الإذاعة وحولها ، ومن تحت لحاف نومى أرى خيال أمى وعمتى أسماء قدام النافذة الكبيرة كأنهما تتابعان حركة شىء ما خارج البيت . أسأل :

– ما هذا يا أمى ؟!

تجيب عمتى همسا :

– زفاف الإمام البدر ، ثم تضيف :

– نم يا ولدى نم !

قبل عودتى لرحلة نومى أسمع همس أحد من خلف باب الغرفة ، تنهض عمتى فأتبين همس عمى عبدالوهاب يقول لعمتى أسماء :

– أنا خارج الآن ..

ترد عليه عمتى فى فزع ظاهر :

– إلى أين يا عبده ؟! وتنتحب أمى باكية منزوية فى أقصى ركن من الغرفة .

تعيد عمتى السؤال :

– قلت إلى أين يا عبده ؟!

يجيبها :

– إلى نجران ، ليس لنا إلا سعود بن سعود !

تقول عمتى :

– والعيال ؟! يجيبها :

– لهم الله ..

تحضنه عمتي وتقول :

– ونحن من لنا وأخوك محجوز في الإذاعة ؟!

يهمس عمي محاولا التماسك وامتلاك أمره :

– دبروا من يكلم أخي عبدالحميد ..

وقبل أن يمضي تسأله إن كان قد ودع جدتي بتول ، فلا يرد عليها .

* * *

لا أرى والدي صباح اليوم الخميس كما وعدتني أمي ، فقد أخذه الثائرون إلى سجن الرادع ، أما عمي عبدالوهاب فربما يكون الآن في طريقه إلى نجران ، ورغم سعادتي ببقاء الجميع في البيت إلا أنني أشعر بقلق كبير لعدم ذهابي إلى المدرسة ، كما أخاف عقاب المدير على تأخري في دفع (حق الخميس) الذي يدفعه التلاميذ لمدرسيهم نهاية الأسبوع ، غير متصور أن حال البلد كله قد انقلب رأسا على عقب، وأول إشارة أراها على ذلك التغيير الجارف كانت صباح السبت وهي ملابس النساء السوداء ، وغياب كل رجال الأسرة عن البيت ، وصفرة وجوه الجالسات من النساء لاستقبال العزاء ، فقد تم إعدام جدي لأمي وآخرين ليلة أمس .

* * *

صباح اليوم التالي أرى عمتي أسماء أكثر حزنا وشحوبا ، وأراقب النساء القادمات للعزاء في صاحبي الأمير الذي لجأ إلى منزل أحد القرويين فغدر به وسلمه لضباط الثورة بعد أن أعطاه الأمان .

غاب صاحبي الذي كنت أرى في وسامته وهيئته وسيارته وصداقته لأبي حلما أتمنى لو امتد لكل الدنيا ، ويشتد حزني عليه ، لأن القروي الذي غدر به قد سلمه لشباب الانقلاب الذين كانوا دائما في ضيافته بمنزله البسيط المتواضع ، وأنهم خضبوا قميصه الأبيض الجميل ، وعمامته الصغيرة البيضاء بدمه الذي طالما منح الناس أملا كبيرا في الحياة والتغيير .

دار البرهان

لقد أصبحت بعد الثورة أكبر سنا ، وأنا الآن بين التاسعة والعاشرة من طفولتى التى تتلقى كل حدث بشىء من القبول ، ولاتبحث عن تفسير أعمق لما يجرى حولها ، لكنها أكثر اختلافا عن ذى قبل بسبب تجربة مصادرة بيتنا الجديد جوار الإذاعة ، ونهب بعض أمتعتنا ، وحمل الطعام لأبى فى سجن الرادع ، ومع ذلك فقد أخالف كثيرا مما هو متوقع منى ، وأهم ما يتوقعون منى بعد تجربة الأيام الأولى للثورة وما بعدها هو الإحساس بالمسئولية ، خصوص بعد مصادرة بيتنا لصالح الخبراء الروس ، وانتقالنا لدار البرهان التى هى الأخرى دار صادرتها حكومة الثورة وكانت ملكا لأحد أولاد الإمام .

بعد عودتى من المدرسة إلى دار البرهان ، وقبل تناولى طعام الغداء مع أمى وبقية النساء ، أتوجه إلى بيت الشمس حيث أجد فى المطبخ زحمة نساء .

جدتى بتول قائمة على التنور ، ثم عمتى أسماء ، وعمة أبى أم القاسم ، يجهزن الطعام لأبى وعمى عبدالستار فى سجن الرادع ، وزهرة تصر فى قوارتها المصنوعة من القماش خبزا من القمح والشعير لأبى وعمى ، وقد التقطتها لتوها من بين نيران جدتى بتول .

أم القاسم تغرف لكل طبق من أوعية (السفرطاس) شيئا من الخضار والحلبة المروقة ، وخبز الذرة للشفوت مع اللبن .

تساعدها عمتى أسماء بوضع الأطباق واحدا فوق الآخر بعد تزليقها على حاملها المعدنى ، فأحمل أنا قوارة الخبز والملوج ، ويحمل أحد أولاد عمى حسن ، الأكبر منى سنا (السفرطاس) بما فيه من أنواع الطعام مختلف الحرارة .

إن أولاد عمي حسن الثلاثة الذين فقدوا أباهم قبل الثورة بسنوات، يتناوبون الذهاب معي إلي السجن ، أما أنا فلا أتخلف يوما واحدا عن حمل الطعام للمساجين ، ولا أسأل لماذا هم يتناوبون وأنا لا ، أقول ربما لأنهم أيتام وليس لهم في السجن أحد، وبالتالي فإن من المفروض أن يتناوب معنا على ابن عمي عبدالستار الذي قيل إن الطيش قد غلب عليه ، وإنه الآن في عدن حيث يشتغل كمعاون لأحد سائقي الشاحنات اليمنيين الذين عملوا في أفريقيا ، ثم انتقلوا إلى عدن ، وابن عمي هذا متمرد لا يقر له قرار .

تقول عمتي أسماء وكأنها تواسيني :

– بارك الله في أولاد المرحوم ، هذا محمود يذهب أغلب الأيام مع ابن محمد بغداء أخوتي في الحبس !

تقول جدتي بتول والعرق لاينقطع من السيلان على وجهها الملفوف بلثامها الأسود :

– الله يبارك فيهم كلهم ، قربي الموقد يا زهرة .

فتأتي زهرة بالموقد الفارغ إلا من رماد قليل ، ثم تأتيها – كالعادة – بملعقة النار الكبيرة المستديرة الرأس في حجم طبق الطعام ، فتمسك جدتي باليد الطويلة كالذراع القصير لتغترف جمرات من التنور وتضعها في الموقد .

* * *

تنتهي عمتي أسماء وتسلم محمود ابن عمي (سفرطاس) الطعام ، وقوارة الخبز في يدي ، وأسألها :

– خلاص ؟

فتجيب عمتي أم القاسم :

– خلاص يا ولدي خلاص .

تلتفت جدتي بتول وملعقة النار الفارغة في يمينها وتقول :

– ياريت والله في قليل قهوة لمحمد !!

- .... !!

- ولعبد الستار ، كلهم يحبون قهوة قشر الحيمة !

وحين لايعلق على أمنيتها أحد ، تسقط دمعتان من عينيها الضامرتين وتمتزجان بحبات العرق فتدفعني - برفق - للخروج عمتى أسماء كأنها لاتريد أن أرى حبات الحزن والتعب ، وأثر ذلك على وجوه النساء فى مطبخ بيت الشمس المزدحم الضيق .

تقول عمتى أم القاسم :

- أسرع لأن ابن عمك قد سبقك ، وقد لاينتظرك .. ولا أسمع بقية كلامها حيث أركض خلف ابن عمى محمود فألقاه ينتظرنى قدام قهوة سمير أمام باب البيت .

أمضى مع ابن عمى دون اعتذار منى أو عتب منه لكنه يقول :

- هذا ابن خالتك سمير مسكين !

وحين أتعجب من وصف سمير بالمسكين يقول محمود :

- نعم .. مسكين ، كيف يدعونى ساعة الغداء لشرب كوب شاى فى وقت الشوربة والمرق ، إن كان ولابد من القبول يمكنه أن يعطينى ثمن دعوته .. نصف بقشة أو بقشة قيمة المرق !

أسأله :

- هل تريد ثمن الشاى أم قيمة الشوربة والمرق ؟!

فيرد ضاحكا :

- الاثنين ؟!؟!

* * *

أمام باب الرادع أتوقف ضاربا جبهتى براحة كفى فيقول ابن عمى :

- مالك ؟! هل نسيت شيئاً ؟! فأرد عليه :

- لقد أوصتنى أمى أن أمر عليها بعد الصلاة ..

يقاطعنى ابن عمى :

- لأجل سيجارة أبيك ؟!

أقول :

- كيف عرفت ؟!

فيقول :

- لقد أعطتنى أم القاسم ما نسيته أنت .

- اعمل معى معروفا واعطنى العلبة حتى لايزعل منى أحد .

- أريد منها حبة واحدة ؟!

- لمن ؟!

- لمنصور .

- أخوك ؟!

يومىء محمود بحاجبيه أن نعم فأقول محتجا :

- سيعرف أبى أنها ناقصة ، سلمها أنت إن كنت ستأخذ منها ؟!

لكنه يخرج علبة سجائر أبى من جيبه متصنعا الزعل ويسلمها لى ويقول :

- لا ياعم ، سلمها أنت وتحمل زعل منصور .

أقول :

- كيف ؟! ومن أين سيعرف ؟!

يقول :

- لقد رأى أخى منصور أم القاسم وهى تسلمنى علبة السجائر التى أرسلتها أمك فأومأ لى وعرفت قصده .

أقول وأنا ألاحق خطواته قدام حارس السجن :

- قل له إنك نسيت ، فلا يرد .

وحين نقترب من كرسى الحارس يمد عصاه مشيرا نحو باب السجن الداخلى ويصيح :

- محمد بن على وأخوه عبدالستار !!

هكذا ينادى الحارس أبى وعمى كل يوم للخروج واستلام ما أحضرناه لهما من الخبز والطعام ، وهو يعلم أن أحدهما فقط من سيخرج إلينا إما أبى أو عمى وليس الاثنان معا .

يهمس الحارس الفطن بعد أن يشير لى بالاقتراب منه :

- أين علبة السجائر ؟!

فأسلمه علبة السجائر وأنا مشغول بمراقبة الباب الداخلى للسجن من بين فتحات الحاجز الخشبى حتى يخرج أبى ويستلم منه سفرطاس الأكل ، وأسلمه أنا قوارة الخبز ويبتسم قائلا بصوت منكسر :

- الله معك .

ثم يستدير وقيد الحديد موصول بين ساقيه النحيلتين ، وخيط يتدلى من بين يديه ليرفع القيد قليلا عن عظام مفاصل القدمين .

يحاول أبى الاستدارة جملة واحدة كأنما يخشى أن أرى ما فى عينيه أو على قدميه حين وقوفه أمام باب غرفة الضابط المناوب الذى يفتش كل ما أعطينا والدى من الأكل والخبز إلا علبة السجائر .

قبل أن أتحرك خارجا من باب السجن أسمع صوت الحارس الفطن من خلفى يقول :

- هل نسيت شيئا يا ابن محمد على ؟!

فألتفت مرتبكا وأسأل :

- ماذا ؟!

فيرد مخفيا أى انفعال :

- ملابس أبيك محمد يا ابن محمد على .

ويمد عصاه المعقوفة وفى طرفها صرة ملابس صغيرة فيها ثياب أبى ،

فأحملها على ظهرى وأركض خارجا من بوابة السجن لأجد ابن عمى قد اقترب من طرف الشارع وهو يلتفت حتى إذا رآنى يواصل سيره وأنا أركض خلفه غير بعيد .

* * *

حال ظهورى أمام شباك نافذة دار البرهان الذى تراقبنى أمى من خلفه ، تهرع من الدور الأعلى لتستقبلنى خلف باب الدار ، وتأخذ منى صرة ملابس أبى فى لهفة غير خافية وتسألنى :

- من سلمها لك ؟!

- ......

- ناصر الحارس ؟!

وحين أسألها : كيف عرفت ؟! لاتجيب بل تقعد لتواصل مرتبكة فك صرة الملابس والبحث فى جيوبها حتى تلتقط ورقة صغيرة مطوية تضعها فى صدرها .، ثم تجمع الملابس دون ترتيب ، وبسرعة تعيد صرها وهى تنظر نحوى بعينين مغرورقتين بالدموع ، وتطلب منى وهى تصعد السلم أن ألحق جدتى أميمة والأخريات لتناول طعام الغداء .

اكتشفت بعد حين أن أمى كانت تختصر أشياء وتكتبها فى ورقة صغيرة تدسها فى علبة سجائر تعيد لحام غلافها السوليفان ، ويتولى العسكرى الفطن ناصر تسليمها لأبى ، كما يتولى ناصر وضع جواب أبى فى أحد جيوب الثياب المرسلة للغسيل فى دار البرهان ، وحين نسلمه أوعية الغداء يكون قد رتب تسليمنا الملابس التى يضع الجواب فيها بعد تفتيشها فى غرفة الضابط المناوب .

* * *

. بعد عصر اليوم أجلس فى دار البرهان مع جدتى أميمة فى غرفتها اتنقل بمؤشر الراديو بين محطات الإذاعة المختلفة دون هدف محدد ، تبدو جدتى

منشغلة بما فى يديها من أعمال التطريز ، ويعجبنى أنها تعمل ذلك دون غيرها ممن أعرف من النساء ، وأنسى أن أسألها كيف تعلمت ، ومن علمها ، لكنها تقول لى :

– ما رأيك لو فتحت لنا برنامج طلبات المستمعين !! فأحمل الراديو إليها وهى تعيده إلى باسمة وتقول :

– افتح أنت الإذاعة فهذا هو موعد البرنامج !!

أتحرج أن أترك غرفتها وأمضى لألعب خارج الدار فتظن أن طلبها قد ضايقنى .

أقطب جبينى مفتعلا التركيز والبحث عن المحطة المحلية حتى يستقر المؤشر ويعلو صوت وردة بالغناء ، فتقول جدتى :

– هذا صوت وردة الجزائرية !

أرد عليها رد الواثق العارف إن وردة مطربة مصرية !

تقول مبتسمة :

– كيف عرفت ؟!

أقول لها إنى شاهدت لها فيلما تغنى فيه وتتكلم بلهجتها المصرية مع رشدى أباظة وممثلين مصريين آخرين ، فتقول لى وهى تحاول إخفاء دهشتها وابتسامتها الرقيقة :

– أين شاهدت السينما ؟!؟!

أرد عليها :

– فى معسكر المصريين القريب من دارنا ليلة أستأذنت أمى فى المبيت عند أولاد عمى حسن فى بيت الشمس .. لقد جلسنا على الأرض فوق الحصى أمام شاشة عبارة عن طلاء أبيض على جدار أحد مبانى المعسكر وخلفنا جلس ضباط وجنود مصريون فى تلك الليلة!

عادت تقول وهى تواصل أشغال التطريز:

- المهم هذه المطربة هى وردة الجزائرية.

أقول لها:

يمكن أن يكون هذا هو اسمها لكنها مصرية.

فتصر جدتى على إنها جزائرية وتقول وهى تبتسم:

- هل تراهن على أنها ليست جزائرية.

أقول :

- ليس عندى فلوس لأراهن بها.

ترد :

- لا بأس إن كسبت أنت الرهان أعطيك ربع ريال..

أقاطعها وأسألها :

- وإن خسرت الرهان؟!

- سأحكم عليك بشىء إن لم ينفعك لايضرك ، فأقبل الرهان وأركض نحو الشارع بحثاً عن شاهد من معاريفى فلا أجد أحداً.

بعد قليل يظهر من طرف الشارع رجل أتبين أنه جندى مصرى.

أجرؤ وأقترب منه فيدرك أنى أريده .. عندما يتوقف عن سيره أسأله:

- هل أنت من أفراد المعسكر الذى يعرضون فيه فيلماً مصرياً ليلة الجمعة؟!؟!

- لا ، أنا من حرس الوزارة.

- المهم أنت مصرى!؟

يرد ضاحكاً :

- إنت شايف إيه؟!

أسأله مرتبكاً:

- هل وردة مصرية؟!

يقول :

- ماذا؟!

فأقول :

- هل المطربة وردة مصرية؟!

يضحك كثيراً وهو يقول :

- لا يابنى .. وردة جزائرية!

نسيت أن أذكر أن دار البرهان هذه التى نسكنها الآن تعتبرها الدولة من أملاكها؛ لأنها صادرتها من أصحابها بعد قيام الثورة وقد انتقلنا إليها بإذن الدولة كبديل قد يكون مؤقتاً عن بيتنا المصادر جوار مبنى الإذاعة، وعن بيت جدى فى الحارة القديمة، وكل ساكنى هذه الدار هم مابين يتيم وأرملة وثكلى، بل إن لكل واحد كارثة خاصة، لها جوانب متعددة، ربما باستثناء جواهر مخدومة جدتى أميمة.

المهم كسبت جدتى الرهان ، وحكمت على أن أنام فى غرفتها بدلاً عن النوم - كالعادة - فى غرفتنا مع أمى وأختى شذى، ومعنا ستنام - مثل كل مساء - خالة أمى ضحى التى تراقب - فى صمت - أمى وهى تغطينى استعداداً للنوم.

أقول لأمى : باقى الراديو ، وأنا لاأدرك أن خطة جدتى أميمة تقضى أن تعطينى خالتى ضحى درساً لاأنساه بسبب هذا الراديو الذى لايمكن أن أنام إلا وصوت المذيع المصرى أحمد سعيد يلقى بتعليقاته النارية وخطبه الثورية بصوت صارخ يؤذى أمى والآخرين كل مساء.

تحمل جدتى جهاز الراديو الفيليبس بحسب طلبى، وتقترب خالتى ضحى بكل هدوء وحزم لتضغط على مفتاح الراديو وتغلقه بعدما ترى عدم استجابتى لطلب أمى خفض درجة الصوت لأنه مرتفع ومؤذ، وقبل أن اعترض على فعلها، تقترب منى خالتى ضحى وتسألنى وهى تضغط على كلماتها ، ونبرتها كما لم أعهدها من قبل:

- من ألقى والدك وعمك فى السجن؟!

أرد باقتضاب ونزق:

- الجمهورية.

PUBLIC LIBRARIES المكتبات العامة

فترفع صوتها وتقول :

- بل السلال.

ثم تسألنى بالحدة ذاتها:

- ومن قتل جدك وخالى، وصاحبك؟!

أقول بانفعال :

- السلال؟؟

ترد:

- بل هادى عيسى.

ثم ترفع صوتها كرة أخرى وتسأل:

- ومن أعطى هادى عيسى السلاح ليقتل الأبرياء؟!

أرد مرتبكاً:

- هادى السلال ، أقصد هادى عيسى..

ثم أضيف بانفعال شديد ..

- وأنا ما أدرانى؟؟

- سلاح هادى عيسى من جمال عبدالناصر صاحب صاحبك أحمد سعيد، هذا الذى تسمعه ونسمعه معك غصباً كل مساء .. هل يجب علينا أن نسمع كل ليلة معك أصوات هؤلاء؟!

أسحب اللحاف من فوق صدرى، وأغطى وجهى حانقاً من خالتى، ومن عبدالناصر والسلال وأحمد سعيد ، وأغط فى نوم طفولتى المجهد العميق.

***

اليوم صباح مبكر آخر، ونحن فى طابور الصباح المدرسى الذى لم أعرف مثله قبل الثورة.

نرفع أصواتنا بنشيد شاعرنا البردونى:

«زمجرى بالنار ياأرض الجنوب».

ونؤدى تحية العلم الجمهورى.

الأستاذ عبد الله البحيرى مدرس رياضة مصرى جديد يدير طابورنا هذا

الصباح.

ومدير المدرسة الأستاذ سامى عسل مصرى هو الآخر.

لقد أصبح لكل مادة مدرس خاص بها ، للجغرافيا مدرس، وللتاريخ مدرس آخر، وللحساب غيرهما، وهو مالم نعرفه فى الصفوف الإبتدائية الأولى.

يقف مدير المدرسة بجوار مدرس الرياضة الذى يعلن فتح باب التبرع لإنشاء وافتتاح مقصف (أو بوفيه) خاص بالمدرسة من التلاميذ والمدرسين.

يتقدم أحد ضيوف المدرسة ليفتتح حملة التبرع وهو بحسب إعلان الأستاذ البحيرى أحد مناضلى الثورة واسمه المقدم مراد ظافر الذى تم تعيينه سفيراً لبلادنا فى الخارج.

خمسة ريالات كاملة يسلمها للمدير عداً ونقداً المقدم السفير والد زميلنا عز الدين، وعلينا نحن المساكين التبرع بما نقدر عليه حال مرور اللجنة على الفصول بدءاً من الدرس الأول.

نحن نعرف من تسريحة الشعر وملابس زميلنا عز الدين أنه ابن مسئول كبير وأن أباه من ضباط الثورة المعروفين، ولعز الدين جندي يرافقه باستمرار، ويزيد من تهيبنا من زميلنا تعيين أبيه سفيراً ومفوضاً فوق العادة التى لا نعرف ماهى.

عند دخولنا الفصول الدراسية بعد انتهاء طابور الصباح لا تمر سوى بضع دقائق ليطل علينا مدير المدرسة سامى عسل يتبعه الأستاذ عبد الله البحيرى كما وعدنا تماماً بغرض جمع تبرعات التلاميذ والمدرسين للبوفيه التى لم نسمع بها ولم نعرف مثلها من قبل.

تشاء المصادفات أن يكون مدرس الحصة الأولى هو أستاذنا محمد المعلم الذى أصبح مدرساً للغة العربية فقط ولم يعد لمادة الأخلاق والمحفوظات وجود، يشير أستاذنا اليمنى بعصاه حال دخول المدير ويقول بصوت مرتفع:

– طلبه .. قيام!

فلا يعجب المدير هذا ويقول بصوت مسموع:

- تلاميذ يا أستاذ محمد، تلاميذ .. الطلاب بعدين، فوق خالص، فى الثانوى والجامعة، وهم دلوقتى يادوب!!

أستاذنا محمد المعلم - كما نحن - لم يدرك بعد معنى كلمة (يادوب)، ولا فرق لدينا بين التلميذ والطالب، وبين صمت الجميع وبعض الأفواه الفاغرة يفتتح الأستاذ عبد الله البحيرى باب التبرع للبوفيه.

لا أحد من التلاميذ معه نقود، والذى معه شىء منها فى جيبه فهى لا تساوى شيئاً يصلح للتبرع، وبالتالى من يجرؤ أن يكون مثاراً للسخرية وموضعاً للحرج.

الصمت والسلبية - فى مثل هذا الموقف - أجدى وأفضل.

ينقذ الموقف زميلنا عزالدين دون توقع أحد معلناً تبرعه بريال كامل.

نصفق له بحرارة متواصلة بإشارة أستاذنا محمد المعلم كأنه يريد إقناع الجميع بأن الريال يكفى من جميع تلاميذ الفصل والمدرسين.

يقطع الأستاذ البحيرى تصفيقنا بإشارة من مسطرته الخشبية ويعلن أن إدارة المدرسة قد قررت تعيين ابنها النجيب المجتهد المتميز عزالدين مراد رائداً ويلتفت نحو مدير المدرسة الواقف بجواره ليقول:

- مش كده ياأستاذ سامى؟!

فيرد الأستاذ سامى:

- دى أقل حاجة.

وبإشارة من عصا الأستاذ محمد المعلم يرتفع تصفيقنا الحار مرة أخرى بعدما يقول:

- تصفيق ياتلاميذ!!

فيبتسم مديرنا المصرى سامى عسل ويقول:

- كويس ياأستاذ محمد.. أحسنت.. هم فعلاً تلاميذ، وحيبقوا طلبة لما يكبروا إن شاء الله.

الثائر والحقيبة

بعد ظهر اليوم - وكالعادة - أترك كيس دفاترى بعد عودتى من المدرسة خلف باب دهليز دار البرهان.

أسير نحو بيت الشمس لحمل طعام المساجين فأجد قدام باب الحوش سيارة توقفت للتو، وحين أقترب منها أفاجأ بسعادة السفير يجلس فى مقدمتها، وفى حضنه عزالدين.. زميلنا فى المدرسة وجوارهما سائق فى بزته العسكرية، وفى مؤخر السيارة جنديان بسلاحهما.

يطل السفير الشاب من نافذته ويسأل:

- هل هذا بيت محمد على؟!

فألاحظ أنه قد أزال شاربه الذى جاء به إلى المدرسة قبل أيام.

يعيد السؤال فأقول:

-بل هو بيت الشمس!!.. بيت عمى عبدالوهاب!

يعود ليقول:

- بل هو بيت محمد على وأنا أعرفه أكثر منك!

أتعجب كثيراً لإصراره بينما يدفع ولده برفق ليقف ناظراً نحوى وأسمعه يهمس لأبيه:

- هذا تلميذ معنا فى المدرسة ياأبى.

يترجل الوالد والجنديان من خلف السيارة ثم يسألنى:

- ابن من أنت؟

- ابن محمد على.

فيمسك الرجل بيدى، ونسير فى حوش البيت نحو الباب الداخلى يتبعنا

الجنديان.

يقول متصنعاً ملاطفتى:

- إذن فأنت صاحب ابنى عزالدين؟!

ولكن يبدو لى أن هناك فرقا بين الصحبة والزمالة فأجيبه:

- نعم.. نحن زملاء!

***

يقف الرجل ويدق باب بيت الشمس المفتوح على حجرة الدور الأرضى التى يقع فى طرفها المخزن الخاص بحاجات مطبخ جدتى بتول.. يقابله غرفة طعام الوسط، وعلى يسار الشخص الداخل - مباشرة - مخزن الحبوب والدقيق. يترك سعادة السفير يدى ويدق بحلقة الباب مرة أخرى دقتين متتاليتين وهو ينادى رافعاً صوته:

- يامحمد على.

فتخرج زهرة من مخزن الحبوب وعلى يديها الممدودتين دقيق قمح وتقول:

- عمى غير موجود، من أنت؟!

يجيبها:

- قولى له صديق قديم يريد مقابلته لبعض دقائق.

ترد عليه وهى تنقل نظرها بينى (ممتعضاً)، وبين سعادة السفير محمياً بجنديين:

- قلنا لك ليس فى البيت الآن أحد من الرجال!

- متى سيعود؟!

- من هذا الذى سيعود؟!

تقولها زهرة وهى تنفض يدها من غبار الدقيق فيتأفف الضابط السفير والإنفعال باد على ملامح وجهه وحركة يديه ويقول:

- غبية أم تتغابين؟!!

تصلح زهرة لثامها على أرنبة أنفها وتحدق فى الرجل ثم تقول:

- أنا زهرة بنت محمد صالح يامراد، كدت لا أعرفك بدون شارب.

يصرخ أحد الجنديين من خلف الرجل:

- تأدبى وأعرفى من تكلمين يابنت محمد صالح، هذا الأفندم مراد يريد مقابلة محمد على..

يقلب الضابط السفير يداه ويتداخل صوته مع صوت الجندى الآخر:

- قلت لك قولى له صديق.. صديق قديم.

- قولى للأفندم متى سيأتى المطلوب.

يضيق الأفندم ويعقب:

- لا مطلوب ولا حاجة ولكن..

يدفعنى الفضول وخشية حدوث شجار فأقول:

- أبى ياأستاذ مراد..

فيدفعنى أحد الجنديين قائلاً:

- قلنا لكم الفندم واحترموا أنفسكم.

فتقترب زهرة لتسحبنى للداخل وهى تقول:

- ياعيباه ياأفندمين، وماذنب هذا الطفل؟!

يتضاعف ضيق الأفندم السفير ويدفعه الضيق ليتحرك خارجاً وهو يؤكد:

- قولى لمحمد على يجهز لى الحقيبة الجلد التى رأيته يسافر بها القاهرة.

- ......

وقولى له إننى سأعود لأخذها فى المساء.

يرتفع صوت زهرة من خلفه:

- إذهب إلى الحبس وقل له أنت هذا الكلام بنفسك.

لكننا نسمع صوته من بعيد وهو يقول :

– كذابة .. لقد رأيت أمر إطلاقه من السجن فى مكتب مدير الأمن صباح اليوم!

***

بعدما تشرح زهرة لمن فى (ديمة المطبخ) ماجرى لها قبل قليل، تأخذنى عمة والدى (أم القاسم) إلى حضنها وتلتفت جدتى بتول دامعة العينين، متصببة العرق وفى يدها مخبزتها التى تضع عليها رقائق العجين لتدقها فى التنور وتقول:

– أنا جار الله وجاركن يا بنات ، أخاف أن يضر هذا الرجل أولادى المحابيس.

ترد زهرة :

– ماذا سيفعل ياأماه أكثر مما هو فيهم؟!

تضيف عمتى أسماء القابعة فى ركن قريب تجهز طعام المساجين:

– أخوتى فى الحبس، فهل سيزيدهم حبساً؟!

تقول جدتى بتول :

– لا يابنات، لقد كتب لى جارنا القاضى جمال بهلول مراجعة للرئيس السلال لإطلاق أولادى من السجن، وقد حملتها لزوجة القاضى طاهر سرحان ليقدمها للسلال قبل العيد ..

تقاطعهم أم القاسم:

– وما شأن هذا بذاك ياأختى بتول؟!

– مراد ظافر هذا صاحب محمد ابنى قبل الثورة، وهو زوج ابنة القاضى، وقد غضب الرجل من زهرة وإبراهيم بن محمد .. هاتى يا زهرة ستارتك، سوف أذهب بنفسى لزوجة محمد ابنى لتعطينى الحقيبة لهذا الرجل ..

وتسحب جدتى بتول ستارة زهرة ، وتصلح لثامها المبلل بالعرق ، وتخرج من (ديمة المطبخ) وأنا أركض وراءها خوف مفاجأة نساء دار البرهان لأن جدتى بتول لاتترك مطبخها وبيتها مثل هذا الوقت إلا لأمر جلل ، أو مصيبة

حاصلة.

أغرق - وأنا أركض نحو دار البرهان - في صورة عز الدين والمدرسة والبوفيه الذى لم يتم افتتاحه حتى الآن ، والريال الذى تبرع به ، وأحاول تصور شكل وحجم حقيبة أبى التى يطلبها سعادة السفير كما أحاول اختصار الطريق من بستان الوقف ، ثم بستان الأملاك المجاور لجدار دار البرهان.

تطرق جدتى باب الدار طرقاً خفيفاً ، فأمد يدى وأمسك بقبضتى المدقة الحديد ثم أرعش الباب قليلاً حتى ينفتح وجدتى فى شغل شاغل عن فعلى ، ولو كان الحال غير الحال لأخذتنى فى سين وجيم، لكنها الآن فيما هو أهم عندها وأكبر.

أسمع صوت جدتى أميمة من المطبخ فى الدور الأرضى تقول :

- أهذا أنت يا إبراهيم؟ ماالذى جاء بك قبل وقتك؟!

أرد عليها بسرعة منبهاً إلى وجود جدتى بتول معى، وبعد سلام وكلام مختصر تسأل جدتى بتول عن أمى فتعلم أنها مع خالتى ضحى عند أختى المحمومة فى غرفة نومنا.

تصعد جدتى بتول دون فضول أو حب استطلاع من جدتى أميمة التى تعود لما كانت به منشغلة وأنا أسابقها نحو غرفتنا حيث ترقد أختى.

يبدو أن أمى لاتحس بدخولى مع جدتى وهى تضع كمادات الماء على جبين أختى، وعلى صوت خالتها ضحى مرحبة، تلتفت أمى وأدرك أن المفاجأة تيبس فمها، وتحبس لسانها حتى شحب وجهها واصفر فلا تنتبه إلا على صوت خالتها تقول:

- انهضى يالطيفة .. سلمى على عمتك.

فلا تدعها جدتى بتول تفعل ذلك بل تبادرها بالسؤال عن صحة أختى، وتدرك الخالة من عبارات الجدة المقتضبة أنها تريد الانفراد بأمى فتدعونى لأسير معها لكنى أقول لها :

- اسبقينى وسأتبعك!

تنظر أمي نحوى مرة أخرى كأنما تطلب منى اللحاق بخالتى ضحى وتقول:

- خذ يا ولدى املأ الوعاء بالماء من المطبخ لأكمد لأختك المحمومة..

أدرك ماتريد فأتحايل وأقول :

- الحمام أقرب ، ألا ينفع ماء الحمام؟!

وقبل أن ترد أمي تقول جدتى بتول :

- اسمعينى يالطيفة واتركى ابنك فإن فيه ما يكفيه.

وحين تدرك جدتى فزع أمي لغموض كلامها تقول :

- لا تقلقى، لكنى لا أريد أن يعلم بطلبى هذا أحد.

- أى طلب ياعمتى يجعلك تتركين البيت..

تقاطعها جدتى :

- اسمعى ، لقد جاء إلى بيت الشمس المقدم مراد ظافر ، صاحب محمد قبل الثورة ، أيام الحسن بن على، ومعه جنود، وقد أخافوا هذا الولد المسكين، ولولا وجود زهرة لانفلقت كبد ولدك نصفين.

تقول أمي:

- وما علاقتى أنا وولدى بقليل الأصل هذا؟!

ترد جدتى:

- قولى ما علاقتنا كلنا .. لقد جاء هذا الرجل ليطلب حقيبة جلدية قال إنه رآها مع محمد عندما سافر القاهرة.

يتزايد استنكار أمي ودهشتها وتقول:

- ولكن ، لماذا أتى إلى بيت الشمس ونحن هنا؟!

أقول قبل أن تجيب جدتى:

- قال لى هذا الرجل إن بيت الشمس هو بيتنا !! وإنه يعرفه أكثر منى.

تزول دهشة أمي، وتقول :

– كنا ياولدى أصـلاً مع جدتك وعمتك فى بيت الشمس قبـل الثـورة، وبعدها انتقلنا إلى بيت الإذاعة .. لقد كنت صغيراً ولابد أنك لا تتذكر شيئاً.

تقاطعها جدتى وتقول :

– ليس هذا وقت الكلام .. اعطينى الآن الحـقيبة التى طلبـها الرجل لأنه قال بأنه سيعود لأخذها فى المساء، أريدها الآن قبل أن يأتى ويتـهجم علينا فى بيتنا بسبب تافه.

تقول أمى :

– لكن ياعمتى أنت تعرفين أنهم نهبونا فى بيت الإذاعة!

تقاطعها جدتى:

– أين الحقيبة يأم إبراهيم؟!

فتجيبها يا أمى وتقول:

– مع باقى أدوات أبو إبراهيم .. عند الجيران.

تقول جدتى:

– أى الجيران يالطيفة؟!

فترد أمى :

– بيت القاضى أحمد ناجى.

تنهض جدتى وهى تصلح لثامها وستارتها وتقول:

– سـأذهب الآن لبنت الشـيخ زوجـة القـاضـى أحـمـد ناجى وأطلب منهـا الحقيبة.

تقول أمى :

– لكنها لاتستطيع أن تعطيك الحقيبة لأنها فى مخزن مغلق والمفتاح مع عمتى أسماء.

تسألها جدتى وهى ترتدى الحذاء:

– كيف ؟!

تهز أمى رأسها وتقول:

- لقد سلمته لنا زوجة القاضى ليبقى معنا ليلة نقلنا بعض الأشياء من بيتنا إلى بيتهم ثانى أيام الثورة.

***

تتفق جدتى بتول مع زوجة القاضى أن تأتى أختى زهرة لتأخذ الحقيبة من بيت القاضى فى وقت بين صلاة المغرب والعشاء تجنبا للفت الأنظار، خصوصاً تلك التى تتردد على قهوة سمير المقابلة لبيت الشمس ، فتأتى زهرة للحقيبة فى موعدها وتحملها حتى تضعها بين يدى عمتى أسماء وتسألها:

- هل سنسلمها لمراد زوج فتنه هكذا بما فيها؟!

تجيبها عمتى:

- لا يازهرة، لازلت بعقلى، ويعلم الله مافيها غير ثياب أخى.

ثم تنهض عمتى وتأتى من خزانتها ببعض المفاتيح محاولة فتح الحقيبة بواحد منها دون جدوى.

تنهى جدتى بتول صلاتها ، وتتابع حوار زهرة مع عمتى، فتقطع راتب دعواتها بعد الصلاة وتقول:

- ربما يكون مفتاح الحقيبة مع زوجة محمد فى دار البرهان!!

ترد عمتى :

- لا يا أمى، كل المفاتيح معى ولا يوجد مع لطيفة أى شىء.

وتعم الجميع الحيرة حتى تنتهى إليهم أصوات أولاد عمى حسن عائدين من المسجد بعد صلاة العشاء فتفزع جدتى وتقول:

- لقد تأخرنا .. العيال عادوا، والناس أتموا صلاة العشاء، وسيأتى هذا المخسوف ومعه العسكر ليأخذوا الحقيبة بالذى فيها...

لكن زهرة تنهض واقفة وتقول:

- لا عليكن، سأنادى نديم ابن أخيك حسن ليفتحها فإنه شاطر..

تفزع عمتى هى الأخرى وتقول:

- ونسلمها للرجل دون مفتاح؟!

ترد جدتى :

- يابنتى سلميها لهم بما فيها .

تعترض عمتى وتقول:

- غير ثياب أخى فيها بعض وثائق أملاكنا، هل أزيدهم وثائق البيت بعدما صادروه وأخرجونا منه إلى الشارع....

- ....

- نادى يازهرة نديم ابن أخى حسن وحاذرى أن تخبريه شيئاً أمام الآخرين .. الله يرضى عليك يازهرة، لا أريد أن يعرف أحد غيرنا بالمشكلة.

فتمضى زهرة مسرعة وهى تطمئن عمتى إلى قدرة نديم ابن عمى وأنه كتوم .. قليل الكلام، وهمه الأكبر كرة القدم.

يدخل نديم تتبعه زهرة ، ويطلب مفكاً أو شيئاً معدنياً حاداً، ثم يعالج قفل الحقيبة حتى يفتحها على ابتسامة إعجاب من عمتى التى تؤكد عليه عدم إخبار أى أحد بما طلبت منه، فلا يرد سوى بكلمة (حاضر) فقد كان نديم رسول المهمات وحافظ سر من يوكل إليه عمل شىء خصوصاً عمتى أسماء.

ينهض نديم ، وتتابعه عمتى بنظرها، وقبل أن يبلغ باب غرفتها تناديه:

- تعالى يانديم.

فيعود إليها وهى تقول :

- إجلس ...

ثم تقترب منه وتدنى رأسها من أذنيه وهى تهمس له بسرها وتشعره بثقتها، وأهمية ماستقول له:

- هذه الحقيبة لعمك محمد، وقد طلبها ضابط كان من أصحاب عمك قبل الثورة، وعنده لنا طلب لإطلاق إخوتى من الرادع..

يقول ابن عمى:

– ومن هذا الضابط؟!

– ربما سمعت عنه فهو معروف .. اسمه ظافر، وهو يريد حقيبة عمك هذه، سنفرغ مافيها لتسلمها له أنت!

– لكنى لا أعرف ولا أعرف بيته!

تجيبه عمتى أسماء:

– سوف يأتى إلى هنا ، وأنا معتمدة عليك لاستقباله..

يقول لها :

– حاضر ياعمتى!!

ويهم بالنهوض فتقول له :

– اجلس حتى أكمل كلامى..

– .....

– أنت الكبير بين العيال، وهذا الرجل ضابط ومعه عسكر، وسيأتى الليلة . فإذا طرق الباب الخارجى رد عليه بسرعة كأنك لاتعرف من الطارق ، وأخبر والدتك أنه أحد رفاقك فى النادى ، وأختلق عذراً إذا سألك أحد عن هذه الحقيبة التى ستأخذها قبل أن يأتى الرجل .. سلمها له بكل هدوء ، ولا تستفزه ، أو ترد عليه مهما قال أو فعل .. الله يرضى عليك .. لا أريد أن يعرف أحد بما فعلت أو بما قلت لك .

يرتاح نديم أكثر لثقة عمتى به واختياره ووصفه بالكبير والعاقل ورجل البيت ، فينهض ويقول :

– ولايهمك ياعمتى أى شىء .. لى أصحاب ضباط وعرايف وأنا أعرف كيف أتصرف .. ماذا قلت ، ما اسمه ؟!!

– مراد .. مراد ظافر .

***

يمضى نديم ، وتفتح عمتى حقيبة والدى الجلدية الصغيرة لتجد فيها ربطات عنق ، ومفكرة صغيرة وأشياء أخرى مع وثائق البيت المصادر جوار الإذاعة ، وتبقى مشكلة تدبير مفتاح للحقيبة بعد تفريغها ، حتى ولو كان غير مفتاحها ، حيث لاتجد عمتى مفتاحاً مناسباً ولو من حيث الشكل على كثرة المفاتيح فى خزانتها ، فكل مفتاح عندها له قفله وحقيبته ، أو خزانته ، أو بابه ، ولا زيادة .

يصعد نديم إلى غرفة عمتى أسماء مرة أخرى ، وعندما يجد الثلاث النساء فى حيص بيص ، ويعرف عدم وجود مفتاح ولو مختلف قليلاً يقول لعمتى :

– لاتقلقى ، سأتدبر الأمر .. لقد وصل الرجل ، وهو فى الأنتظار أمام البيت فى الشارع ...

الليل شديد الظلمة ، ونديم يهبط على ضوء ضعيف من فانوس زهرة الذى يتركه لها خلف بابا البيت ليخرج والحقيبة الصغيرة الفارغة فى يده .

الساعة لا تتجاوز التاسعة ليلاً ، والهدوء يلف الحوش والشارع بطوله ، إلا من همس عسكر مراد ظافر وسائقه الذين هم فى الأنتظار .

كان يمكن أن يتم تسليم الحقيبة مع مفتاح مزعوم لولا ظهور عربة مدرعة تكشف وجه نديم والحقيبة فى يده .

يبادره الرجل منفعلاً :

– يا أبنى أرجع بهذه الحقيبة وقل لزوجة محمد على إن الحقيبة التى رأيتها مع زوجها أكبر بكثير .. عد إليها وسأنتظرك هنا .

تقترب السيارة المدرعة أكثر وينبه الرجل أحد مرافقيه لهويتها ، فيتحرك وهو يغلق زجاجها بسرعة دون أن يقول شيئاً أو ينتظر الحقيبة الأخرى الكبيرة المغلقة

بالقماش كما قال .

***

أتفقد بنظراتى القلقة تلاميذ طابور الصباح بحثاً عن رفيقى فى طريق العودة إلى البيت فلا أجده ، ويزحمنى من خلفى أحد التلاميذ ، وحين ألتفت أجده بجوارى يدفع التلميذ الآخر بيننا ليحل محله .

هذا هو عزالدين الذى ليس بينى وبينه أى صحبة حتى اليوم ، أجده على يمينى دون أن أدرك مراده ، وكالعادة نواصل طابور الصباح ، والنشيد للجنوب المحتل ، وتحية العلم دون بادرة أخرى من عزالدين مراد أو تأثر باد عليه بما يفعل.

أتجاهل وجوده جنبى كما يتجاهل وجودى فإذا ما تحركنا نحو الفصول يقول لى :

-أسمع يابطل ، سيأتى أبى اليوم إلى بيتكم وهو يريد الحقيبة الجلدية الكبيرة ، عليكم تجهيزها لأننا سنمر لأخذها .. ضرورى نستلمها اليوم لأننا سنسافر غداً .

وندخل الفصل دون أن أرد عليه بكلمة واحدة ، ويتضاعف خوفى وقلقى لدرجة أنى لا أستوعب شيئاً من الدروس الأولى ، وتصورى لعودتى دون رفيق .

فى وقت الاستراحة يلح على سؤال فى دوامة كيف أبلغ أمى بذلك الطلب ، وأفكر فى مغادرة المدرسة مبكراً لكننى أتردد .

أعود لأقول لنفسى :

– وما الفائدة من البقاء فى المدرسة وأنا مشغول البال وخائف لدرجة أنى لا أستوعب شيئاً من الدروس .

أحاول أستذكار شيء مما قيل فلا أستطيع ، ويلوح في نظرى أستاذى محمد المعلم وهو يشير بعصاه نحوى ويسأل :

– هل فهمتم ؟!

فأستفيق عل أصوات التلاميذ صائحين :

– فهمنا يا أستاذ .

وقد كان الأستاذ المعلم مهاباً رغم أنه لم يستخدم عصاه يوماً في عقاب التلاميذ .

وقبل أن أحسم الأمر في مغادرة المدرسة من عدمها يدق الجرس طالباً عودة التلاميذ للفصول .

فجأة أقرر العودة إلى البيت فأسرع الخطى بين التلاميذ المتزاحمين محاولاً بلوغ الفصل قبل الأستاذ بوقت كاف ، لكننى عند باب الفصل أحس بيد تمتد من خلفى لتوقفنى .

التفت فإذا الأستاذ محمد المعلم يبتسم ويقول لى وهو يسحب يده :

– أريد أن أراك بعد الحصة السادسة ... فيضطرنى طلب أستاذنا المعلم (جارنا القديم) إلى البقاء وعدم مغادرة المدرسة ، وتزداد حيرتى ، ويتضاعف اضطرابى وعدم تركيزى .. فماذا يريد أستاذى ، وماذا سيحصل لو جاء والد عز الدين إلى بيت الشمس قبل وصولى وعمتى لا تعرف شيئاً ، وأمى بعيدة فى دار البرهان ؟! وماذا يمكن أن يفعل بى عز الدين وهو الذى تم تعيينه رائداً للفصل ، وما علاقته بالمدير سامى عسل والمدرسين المصريين ؟! وهل سيقف معى أستاذى وهل يمكن والد عزالدين أن يحبسنى وأنا صغير السن ؟! وإذا حبسنى هل سأكون مع أبى فى الرادع أم سيأخذوننى إلى سجن آخر لا أعرف أحداً فيه ؟!

كل شيء يهون إلا فكرة إعدامى كما فعلوا بصاحبى !! أو أن يدسوا سيجارة فى فمى بعد قتلى ويمثلوا بجثتى كما فعلوا مع جدى .

أصاب بدوار فظيع ولا أستفيق إلا على ندى قطرات الماء تبلل وجهى وأمامى أستاذى محمد المعلم والأستاذ عبدالله البحيرى .

أسمع أولاً الأستاذ البحيرى يقول لى مازحاً :

– أهو انته ضيعت علينا حصة بحالها .. مالك يا إبراهيم ، انته ما فطرتش ، وإلا مانمتش ، وإلا إيه ؟!

يقول أستاذى محمد المعلم :

– الولد تعبان من الصباح وضرورى يعود بيتهم .

يقول الأستاذ البحيرى :

– وماله يا أستاذ محمد .. يروح دلوقتى .

– ضرورى أروح معاه .

– وماله .

– إذا تكرمت يا أستاذ عبدالله أستأذن لى .

– ولا يهمك يا أستاذ محمد ، إنت روح معاه وأنا أستأذن لك من الأستاذ سامى .

– ....

– إذا كان فاضل لك حصة سيحل مكانك أى حد ..

– ....

– يلا روحوا .. إنتو مستنين إيه ؟!

***

ونحن فى طريقنا إلى البيت أتجاهل سؤال الأستاذ عن سبب ما حصل ،

لكننى بناءً على نصيحته .. أتوجه إلى بيت الشمس حيث عمتى وجدتى وأولاد عمى ، لأنى لو عدت إلى دار البرهان فحتماً ستفاجأ أمى وتشعر بخوف شديد بسبب ماجرى لى كما يقول الأستاذ محمد المعلم ، وكأنه يقرأ ما يدور فى رأسى من مخاوف وأفكار ..

أمام باب حوش بيت الشمس نرى القاسم جالساً فينهض حين يرانا مبدياً أستغرابه لحضورى المبكر مع الأستاذ محمد وهو الذى يرافقنى كل يوم نعود فيه من المدرسة ، وقبل أن يسأل عن سبب عودتى المبكرة يقول الأستاذ :

– هذا أنت هنا مثل العامل البطال لا تفعل شيئا ؟!؟! لماذا غبت اليوم عن المدرسة ؟!

يقول القاسم :

– كنت مريضاً يا أستاذ وقد منعتنى أمى عن الذهاب إلى المدرسة ..

– خذ صاحبك ليرتاح عندكم قليلاً وقل لوالدتك تعطيه سكر راس ، أو سكر نبات مع قليل ماء بارد ..

فيمسك القاسم بيدى وأنا أسأله عن غيابه فيقول إنه سينتقل بعد أيام إلى خضير وربما لن يرانى بصورة مستمرة .

نصعد سلم بيت الشمس ونلتقى زهرة فى منتصف درجات السلم وهى نازلة تحمل طعام بقرة جدتى بتول القاطنة فى أحد الأماكن خارج البيت .

تقول زهرة :

– ما الذى جاء بكم مبكرين ؟!

يقول القاسم :

– لقد داخ وأغمى عليه فى المدرسة .

تقول زهرة :

– وأين ستذهب به ؟!

– سنأخذه ليرتاح قليلاً فى غرفتنا ونعطيه سكر راس مع ماء ...

– وماذا سيفيده .! تقول زهرة ثم تسألنى :

– هل أكلت شيئاً منذ الصباح ؟!...

ويتعالي صوت جدتى من (ديمة المطبخ) القريبة المدخل من السلم وهى تقول :

– ماذا تفعلين هناك ؟!... ستموت البقرة جوعاً وطعامها معك يا زهرة .

فتهرع زهرة على الدرجات وهى تقول :

– أسرعا إلى غرفة أم القاسم وسألحق بكما .

***

دون عمتى وجدتى وبعض النساء ، فإن الصغار والكبار ينادون زهرة (أختى زهرة) وأختنا زهرة هذه ودودة مع الجميع ولا تتردد أبداً فى خدمة من يطلب منها شيئاً .

فى غرفة أم القاسم لا نجد سكر راس ولا سكر نبات ، فتطلب عمتى أم القاسم من ابنها أن يذهب ليبحث عن السكر المطلوب عند عمتى أسماء أو جدتى بتول ، فيذهب القاسم وتلتفت أمه نحوى وتمسح رأسى وتقول:

– مالك يا إبراهيم ؟!.. قل لى هل آذاك أحد ؟!

وكأنى أنتظر مثل هذه اللحظة .. أنفجر باكياً على دخول زهرة ، فتضمنى أم القاسم وهى تقول :

– قل لى ما الذى جرى لك فى المدرسة فلا أحد معنا إلا أختك زهرة ، فأحكى

لهما كل ماجرى حتى أنتهى ، فتقول أم القاسم :

- لا تقلق فإن الفرج قريب .. لقد عانيت أنا أكثر من هذا الذى يجرى لنا ..

وأما زهرة فإنها تتجه نحو باب الغرفة وترتدى حذاءها وتقول :

- لاتخف يا ولدى .. أنا من سيستقبل زوج فتنة .

فلا تعلق أم القاسم على وعد زهرة ، بل تواصل مسح صدرى بكفها وهى تقرأ شيئاً من القرآن .

***

تتحجج زهرة بالبقرة للخروج وأنتظار المقدم مراد ظافر لأن البقرة - كما تقول زهرة لجدتى - عازفة عن الطعام على غير عادتها ، فتأذن لها جدتى بالإسراع لعلاج البقرة لأنه لا سمن ولا لبن للبيت وللمحابيس إلا منها .

غرض زهرة أن تكون فى استقبال عز الدين مراد وأبيه وعسكرهما فيكون لها ماتريد ، فحين يدخلون ترى الضابط السفير وعسكرياً واحداً برافقه ، فتتجه نحوهما وتسألهما بإنفعال عما يريدان .

يقول مراد وهو يحس بغضبها :

- لقد أخبرت ليلة أمس الولد الذى جاء بالحقيبة أنها ليست المطلوبة و...

قبل أن يكمل كلامه تقول له زهرة :

- وما دخل الولد الصغير ابن عمى محمد المحبوس حتى يتهدده ابنك فى المدرسة ؟!

يتغابى الرجل ، وينكر أنه أمر ابنه بشىء ، مؤكداً أنه فضول من ابنه لكنها تقول :

- اسمع يا زوج فتنة ، والله لئن لم تترك التهجم على شرايف بيت السيد محمد لذهبت بنفسى إلى بيت الشيخ وأحرقت ستارتى هناك أمام خلق الله، وأنت

وأنت تعرف ياسيد الرجال من هى زهرة ومن أهل زهرة ..

ثم تقترب من الجندى المذهول الواقف خلف صاحبه وتقول :

– وأنت يامسعد والله لو رأيتك مرة أخرى تدخل هذا البيت مع زوج فتنة هذا لفضحتك أمام الخلق ...

يرتبك الرجلان ، ويتحرك الضابط وخلفه العسكرى وهو يقول :

– هذه امرأة مجنونة ، ومجنون الذى يكلم المجانين ...

– ...

تضحك أم القاسم التى تشاهد الموقف معنا من نافذة حجرتها وتقول لنا :

– هيا يا أولاد .. أشربوا لكم سكر راس مع ماء من الزمزمية ثم تضيف هامسة :

– والله إنها امرأة بمائة رجل .

***

الجميع الآن فى بيت الشمس يعرف بقصة زهرة مع مراد الضابط وبما جرى لى فى المدرسة ، والخوف أن تعرف أمى فى دار البرهان بأى شىء من ذلك .

تتدبر عمتى أسماء أمر إرسال طعام المساجين ، وتستأذن لى أم القاسم من أمى فى البقاء مع القاسم والمبيت فى بيت الشمس ، لأن القاسم مريض ولم يذهب إلى المدرسة فتأذن أمى وهى لا تعلم بأى شىء .

لأول مرة أبقى حبيس البيت حتى اقتراب أذان المغرب ، وحين تمد أم القاسم سجادة الصلاة وتستعد للوضوء ، أتردد فى الأستئذان للخروج والصلاة فى المسجد القريب من دار البرهان لعلمى أن أبنها يبقى للصلاة فى البيت ، وأن أستئذانى لنفسى قد يوحى لها أننى أستأذن لابنها أيضاً .

تحس المرأة أننى أريد أن أقول شيئاً ..

تبتسم وتسألنى إن كنت أريد الخروج فأقول لها :

– للصلاة فى المسجد ، وزيارة أمى ، ولن أتأخر .

تأذن لى وتقول :

– أما القاسم فسيصلى هنا فى البيت .

***

لا يلفت إنتباهى كثيراً حضور محمود ابن عمى للصلاة فى مسجدنا ، فهو عادة ما يصلى فى المسجد الأقرب من بيت الشمس ، لكنى أستأنس لوجوده ، وأطمئن لمرافقته لى عند العودة ، فأنسى أن أعرج على أمى فى دار البرهان ، ويأخذنا الحديث حتى باب حوش بيت الشمس .

عند أول خطوة بعد عقب الباب الخارجى يركض ابن عمى فجأة على ضوء البدر من بين السحب وهو يصيح :

– أركض يا إبراهيم .. أركض .

فيصيبنى فزع شديد للمفاجأة التى لم أتوقعها وأركض خلفه بشدة حتى نلتقى عند باب البيت الداخلى .

يدق ابن عمى الباب دقات قوية متتالية وقلبى يدق بعنف أشد من دقاته للباب ، وأنفاسى الملتهبة لا تمكننى من الرد على سؤاله :

– هل تخاف الجن ؟!

ثم نسمع صوت حبل المغلقة يسحب من داخل البيت مرتين لينفتح الباب ، فيدفعه ابن عمى دفعاً شديداً وينطلق – رغم الظلام – فى طريق هو يعرفها جيداً وأنا أتخبط متحسساً الجدران حتى أول درجات السلم ، ثم أخطو خطوة وعيناى زائغتان ، ويداى راعشتان ، حتى أصل حجرة أم القاسم التى لم أتوقع أن تكون بلا سراج وبابها مغلق ، فأدقه خفيفاً ، وبصوت متقطع أنادى :

- قاسم .. قاسم .

فلا يرد أحد ، ثم :

- عمتي .. ياعمتي .

فلا تجيب .

في هذا الوقت يكون ابن عمي في غرفتهم ، فتقطع أمه راتبها المعتاد بعد الصلاة وتسأله :

- أين ابن عمك ؟!

فيرد :

- لا أدري !!

- أما عاد معك كما طلبت منك ؟!

- بلى ، ولكن يبدو أنه صعد إلى حجرة أم القاسم !!

تنهض عمتي آمنة لترى أين أنا وهي تؤنب ابنها :

- يا لعين .. أما قلت لك أن ترافقه من المسجد بعد الصلاة ، وتخبره أن القاسم وأمه لن يناما الليلة في البيت ؟!..

ثم تناديني فيشتد خفقان قلبي لسماع صوتها وأرد عليها بصوت المستنجد :

- نعم ، أنا هنا ياعمتي !!..

فترد علي :

- أنتظر حتى آتيك بسراج ..

فأخطو بصعوبة بالغة لأني محصور بالبول والخوف ، وتتعثر قدمي في درجات سلم يعرفها أولاد عمي بالعدد ، بينما أنا حتى هذا الوقت غريب عن كل شيء في هذا البيت .

أنهض متحسساً طريقي وأرد على زوجة عمي آمنة :

- أريد الحمام ..

فلا تسمعني لأنها تعود إلى غرفتها لأحضار الفانوس ، وحتى تشعله أكون في وسط الحمام المظلم أطرطر بولي المتقطع المندفع في كل اتجاه .

الكنز

لا أصدق نفسى وأنا فى الفصل ، وقبله فى طابور الصباح أننى لن أجد بين التلاميذ من أبحث عنهما بتوتر وقلق شديدين :

الأول : عزالدين مراد ، والثانى : القاسم ابن عمة والدى الذى أخبرنى أنه سينتقل إلى حارة خضير مع والدته ، لكنه وعدنى باستمرار دوامه فى المدرسة .

ننهض لدخول الأستاذ رمزى أستاذ الجغرافيا الجديد ومعه أستاذنا محمد المعلم ، يقول الأستاذ رمزى :

- إن الإدارة تريد ترشيح رائد جديد للفصل لأن زميلكم عزالدين سيسافر مع أبيه صباح اليوم ربما لعدة سنوات وهو الآن طائر فى جو السماء ..

يحتار التلاميذ لمثل هذا الطلب ، لأننا لا نعرف أصلاً ماهى وظيفة رائد الفصل ، ولذلك كان عزالدين يتصرف كما يريد بدعوى أنه رائد الفصل .. ينهر هذا ، ويدفع ذاك ويهدد آخرين بفصلهم أو تنكيسهم إلى مستوى دراسى أقل لأى سبب كان .

يلتفت أستاذ الجغرافيا الذى تعرفنا عليه قبل أيام قليلة نحو الأستاذ محمد المعلم ويقول :

- أنا زى ما أنتو عارفين جديد على المدرسة ، بل وجديد على البلد بحاله ، والا إيه يا أستاذ محمد ..؟!

فيرد الأستاذ محمد بالإيجاب .

يعود الأستاذ رمزى ليقول :

– وعلشان كده سأترك الترشيح لريادة الفصل لزميلى الأستاذ محمد المعلم ..
لايتردد الأستاذ محمد كثيراً ويقول :

– إن الفصل بحاجة إلى طالب هادىء ومثالى يحل المشاكل ويضبط التلاميذ خصوصاً عند غياب أو تأخر أى مدرس عن حصته ..ثم يشير بعصاه نحوى ليقول:

– يا أستاذ رمزى أنا أرشح لك الطالب إبراهيم محمد على !!!

فيرد الأستاذ رمزى :

– كويس جداً ، وأنا موافق ، تصفيق يا أولاد .

فيصفق الجميع وأنا غارق فى دهشة المفاجأة ، وأرتباكى لعدم معرفتى بمهام رائد الفصل سوى ما ذكره الأستاذ من ضبط الفصل وتهدئة التلاميذ عن غياب أو تأخر أحد المدرسين .

ويبدأ درس جديد للأستاذ رمزى فلا أستوعب منه الكثير .

فى استراحة نصف النهار لا أخرج من الفصل – كالعادة – بل أمكث فى الفصل لأتناول كعكتى اليومية وأنا أفكر فى كل هذه الغرائب الحاصلة منذ الصباح وأقرر أن أعود إلى البيت من الطريق الذى يسلكه الأستاذ محمد المعلم – وهو غير بعيد عن دار البرهان – لأن آخر حصة فى دروس اليوم هى لأستاذنا المعلم الذى لحسن حظى خصص الدرس للخط والإملاء ، فلم أكن بحاجة إلى الكثير من التركيز بل أغرق فى الكتابة وذهنى فى عالم آخر ، حتى إذا ما أنهى درسه أتقدم إليه وأطلب مرافقته فيقول :

– لا بأس .. أنتظرنى فى الخارج لأنى سأمر على الإدارة قبل عودتنا للبيت فأنتظره وأنا أتحرق شوقاً للقاء أمى وجدتى فى دار البرهان لأخبر الجميع بما حدث اليوم وأنه قد تم أختيارى لأكون رائداً للفصل .

لا أحس إلا والأستاذ يدعونى للسير معه ، ويلفنا الصمت فى الطريق ، إلا من نصيحة للأستاذ بأن أخصص دفتراً لتسجيل أسماء التلاميذ ومتابعة الحضور والغياب ، وعرض ذلك يومياً على الأستاذ رمزى ، كونه المشرف الجديد من المدرسين على فصلنا ، فأعده بذلك .

خطوات الأستاذ محمد السريعة لطول قامته وسعادتى بمرافقته تجعلنى كمن يسابق الريح بخطوات سريعة قصيرة ، حتى إذا ما وصلنا إلى تقاطع الطريق أستأذن ، فيودعنى وهو يسير بذات الخطوات المسرعة .

أتحول للاتجاه الآخر وألمح جواهر فى الاتجاه المقابل تسير نحو البيت ، فأركض حتى لا أضطر لمناداتها ، لأن ذلك عمل غير مقبول .

نلتقى عند بابا دار البرهان ، فأسلمها كيس الكتب والدفاتر لتأخذه معها وتبلغ أمي بأننى سأذهب إلى بيت الشمس لآخذ غداء أبى إلى الرادع وأنى سأعود بسرعة ومعى خبر سار .

تطلب منى جواهر أن أكشف لها خبرى السار ، فأعتذر ضاحكاً وأقول بأنى سأطلع الجميع على الخبر مرة واحدة بعد عودتى .

أتوجه - كالعادة - إلى مطبخ بيت الشمس لأجد عمتى أسماء وزوجة عمى آمنة وجدتى بتول ومعهم زهرة ، وعلى الفور يذكرنى غياب أم القاسم عن المطبخ بما جرى لى ليلة أمس .

الجميع مشغول ، وأنا أطلب السرعة دون أن أقول فقد محى السرور خوف الليلة الفائتة ومتاعبها .

أعيد «السلام عليكم» لعدم انتباه أحد لدخولى سوى زهرة القريبة من الباب التى تضحك وتقول بصوت يسمعه الجميع :

- مالكم يا ناس !! ردوا على ابنكم السلام ...

فيرد الجميع بأصوات متلاحقة :

– وعليكم السلام ورحمة الله .

وتضيف عمتى آمنة :

– ما الذى جاء بك ؟! ألا تعرف أنك لن تذهب اليوم بطعام أبيك ؟! عد إلى بيتكم وسيأخذ أولادى الأكل إلى الرادع ...

وقبل أن أقول شيئاً تقول جدتى بتول :

– إفعل ما قالت لك عمتك آمنة يكفيك ماجرى لك أمس .

فأخفض بصرى ، وأطأطىء رأسى متصنعاً الامتنان والتعب ، لكننى ما إن ابتعدت قليلاً وأدرك غيابى عن أنظار النساء فى المطبخ ، حتى أقفز جرياً على درجات السلم وأكاد أصطدم بامرأة داخلة عند باب البيت .

أواصل الجرى حتى أدخل دار البرهان ، وفى حجرة المطبخ فى الدور الأرضى أجد جواهر تتكىء على سلم من الخشب وهى تدق بأسفل مكنسها بقعة من الجص تشبه فى تكوينها شكل نافذة مسدودة .

أسألها عن جدتى أميمة فتقول لى وهى تواصل الدق :

– أسمع .. أسمع .. إن هذه طنة ورنة خزانة كنز أحكم البناء عليها من خبأ الكنز هنا ..

– ومن خبأه !؟؟

– لاشك أهل البيت السابقين .. ألم يكن البيت لأحد أولاد الإمام ؟

– ....

أستمع إليها بدافع الفضول ، وحب الأستطلاع ، وحكايات كثيرة نسمعها عن أناس يخبأون أموالاً وذهباً كثيراً فى خزائن صغيرة وكبيرة داخل بيوتهم ، وبنوا عليها بناءً قوياً مموهاً بالجص والآجر خوف نهبها كما حصل للمدينة من النهب

عام ٤٨ وتقول بعض الروايات إن من الناس من أشترى بيتاً من الورثة بعد موت صاحبه ووجد كنزاً لا يعلم به أهله .

روايات أخرى تتحدث عن اكتشاف كنوز وأموال مدفونة فى بيوت اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين ، ولا تترك لى جواهر فرصة تذكر المزيد من الحكايات حين تطلب منى أن آتيها بسيخ الحديد من المطبخ فأحضره لها غير مدرك لغياب جدتى التى أبحث عنها .

تجرب جواهر قطعة الحديد هذه وتضرب النافذة المسدودة بها بكل قوتها فلا تؤثر فيها بشىء يذكر .

تقول لى وأنا شاخص ببصرى نحوها .. أتابع ضرباتها وأتأمل محاولاتها :

– اذهب إلى مكان الحاج صالح الحارس وأستحضر لنا مطرقة كبيرة ومعولاً ، أو أى شىء يساعدنا فى فتح هذه الخزانة اللعينة ..

فأخرج من الدار ، وأسير نحو غرفة الحاج صالح وأنا أمنى نفسى بكنز كبير ، وأشياء أخرى ثمينة ، لأنه لو لم يكن هذا محل كنز كبير لما أعتنى أصحابه فى بنائه وأحكموا سده .

أقول لنفسى :

– إذا لم تقدر جواهر أن تعمل شيئا وتفتح هذه البقعة الشبيهة بنوافذ الدار الأخرى التى يغمرها الضوء نهاراً فسأحاول أنا جهدى ، وإذا اقتضت الحاجة طلب المساعدة من الحاج صالح الحارس ، رغم أنه مفروض علينا من الدولة بغرض حراسة دار البرهان الذى لم يزل من أملاكها ، لكن الرجل طيب وودود ، ونحن نؤمن له طعامه وشرابه .

غرفة الحاج صاح خارج الدار ، وملاصقة لها من جهة الشرق بجدارها الرابع الذى هو جزء من الجدار الشرقى خلف مطبخ دار البرهان .

قبل أن أمد خطوتى الأخيرة باتجاه غرفة حارس الحكومة المفتوحة الباب ، أراه منزويا فى الركن المقابل لذلك الجدار الذى هو جزء من جدار الدار الشرقى وهو ينظر متوتراً بأنتظار ماسيظهر من ناحيتنا فأنسحب ضاحكاً ، وأعود مسرعاً وأنا أغطى فمى بيدى ، حتى لايسمعنى ، أو يحس بى ذلك المسكين الذى ربما غلبه حياء الرجل ووقار الشيخ فلم يأت ليسألنا عن سبب إزعاجه وقت قيلولته .

قاسم صلالة

اليوم عصر يوم آخر من أيامنا فى دار البرهان .

تنتهز خالتى ضحى خروج أمى وجدتى أميمية لزيارة بيت الشمس لأول مرة بعد غياب أم القاسم لمواساة عمتى أسماء وجدتى بتول فيما تسميه النساء (رعى الله الغائبين) وتدعونى للجلوس معها وسماع الراديو ... إنها تريد بقائى أطول وقت معها بدعوى مؤانستها حتى عودة المرأتين ، وأحس من تشعب أحاديثها أنها تريد محو آثار ليلة إقفال الراديو ، ويتأكد شعورى بما تريد حين تدعونى للجلوس والبقاء معها حتى تنتهى من تسريح شعرها الأشيب المصبوغ بالحناء ، وعلى وعد منها بأنها ستعطينى مايعوضنى عن كنز جواهر المفقود على أن لا أذكر لأحد أبداً ماستعطينى .

يزداد فضولى لمعرفة عطية خالتى لكنها تؤجل ذلك حتى تنتهى من تسريح شعرها ، وتأخذنى فى ذكريات وأحاديث شتى عن دار البرهان ، والكنوز المزعومة ، ونهب القبائل للمدينة عام ٤٨ .

تطيل الخالة الحانية تسريح شعرها بمشط خشبى عتيق لتذكرنى أن هذه الدار هى أصلاً لزوج أم القاسم الذى قتله ثوار ٤٨ ، وأنه كان من أزهد أولاد الإمام وأنه خالها من الرضاع ، وأن زهرة لو سألت قبل الضرب والدق على تلك البقعة ، لعرفت من جدتى أنه لا كنز هناك ولا هم يحزنون ، لمعرفتها أن زوج عمتى أم القاسم لا يمكن أن يخبىء شيئاً ، لأنه لم يكن يملك شيئاً غير دفاتر العلم وكتبه ومسوداته ، وأن أغلب تكاليف بناء البيت كانت من مال جد القاسم لأمه لمعرفته بحال صهره وزهده .

وتذكر خالتى ضحى أنها كانت فى بيت جدها لأمها يوم قتل الإمام يحيى ،

وأنها مكثت تقرأ آية الكرسى بعد انتصار الإمام أحمد ودخوله صنعاء دفعاً لنهب الناهبين وطلباً من الله لحفظ الغائبين ورعاية الحاضرين ، حتى أتمت تلاوة تلك الآية ألف مرة ، وبسبب ذلك لم يحصل لدار جدها شيء حين حصل نهب قبائل الإمام المنتصر للمدينة .

بعد أن تنتهى خالتى من تمشيط شعرها ، تمسك مشطها الخشب بيد وتستخرج منه الشعر العالق باليد الأخرى ، وتلفه حول أصبعها ، ثم تبتسم حال دخول جدتى الغرفة بعد عودتها من بيت الشمس وتسألها إن كانت تعرف عمر هذا المشط العتيق ، فتضحك جدتى وهى تضع خمارها وتقول :

– ربما من عهد الأتراك فتكركر خالتى وتقول :

– ليس إلى هذا الحد ، لكن عمره الآن مثل عمر إبراهيم مرتين أو ثلاثاً ، ثم تحكى قصتها مع شابة يهودية كانت تتردد على دار جدها .

تقول خالتى إن مشطها القديم انكسر ذات يوم ، وأنها مكثت فى حيرة شديدة لأنها إذا استخدمت مشط غيرها فقد تنتقل إليها عدوى صيبان القمل ، وإن هى لم تمشط شعرها تجعد وتساقط وأصابه الضعف ، كما أنها لا تملك نقوداً لتشترى بها مشطاً جديداً ، ولا تجد فى ذلك الوقت من تستدين منه ، وفجأة تطل عليها فى غرفتها تلك الفتاة اليهودية لتخبرها أنها ستهاجر مع أهلها إلى فلسطين ، ثم ناولتها ريالاً فضياً كاملاً وطلبت منها الدعاء ودرس القرآن على نيتها !!

تضحك خالتى ضحى وتقول لى :

– هل تصدق أننى إلى اليوم لا أعرف كم عدد المرات التى درست لها القرآن !!

تدير جدتى مؤشر الراديو على الإذاعة المحلية ونعلم منها أنه سيتم الإفراج عمن تمت محاكمتهم ، وثبتت براءتهم ، وأن أوامر قد صدرت بالإفراج عن عدد من المساجين بمناسبة عيد الأضحى . وبعد قراءة المذيع لأسماء من سيتم الإفراج عنهم تغمرنا فرحة لقرب موعد الإفراج عن أبى .. وتتضاعف فرحتى بنصف حبة الذهب التى أعطتنى خالتى ، وهو – كما أعلم من أمى – كل ما تملكه خالتى مما

أرسله لها ابن خالي الهارب في السعودية.

* * *

الشمس – كعادتها – في بكورها تشع قليلاً قليلاً على بستان دار البرهان ، ونسمة باردة تسرح بهبوبها وريقات تشوبها صفرة وبقية ماء (السانى) على ساقية كان يسير عليها ، وجواهر مع جدتي في مطبخ الدور الأرضي تجهزان إفطارنا مع طبق كل يوم من الفول للحاج صالح الحارس .

تصعد جدتي بإفطارنا بعد أن توصي جواهر بإفطار جارنا الحارس المشغول في البستان ليأتينا بقليل من الكرات والنعناع وشيء من البصل .

الحاج صالح مشغول فلا ينتبه للداخل النحيل الحامل فرشاً مع بطانية مربوطان بحبل وفي يده صرة ثياب يضعها بهدوء على الأرض ، ويمد يده ليدق على زجاج النافذة الشرقية للمطبخ .. الزجاج الذي يسمح بنفاذ الضوء لكنه لا يظهر وجه من خلفه .

يعلو صوت جواهر التي لا تدري أن من يدق نافذتها بإصبعها الرقيقة هو أبي وتقول :

– حاضر يا حاج صالح ، حاضر

وحين يتكرر الطرق الخفيف على زجاج النافذة ، ترفع لثامها وتفتح النافذة قليلاً وهي تقول :

– سآتيك بالفطور حالاً .

وما تلبث أن تصيبها دهشة المفاجأة لرؤية أبي فتصيح :

– من ؟! .. عمي محمد ؟!

– لا ترفعي صوتك فقد جئت من هنا خشية إزعاجكم .

تركض جواهر لتفتح الباب ، ويحمل أبي متاعه ، ويلتفت الحاج صالح ليتابعه ببصره ، ونسمع زغرودة جواهر ضعيفة مرتعشة فتتسمر أمي في مكانها ، وأقفز من فراشي صائحاً :

– إنه أبي ، والله العظيم أنه أبي .

فتنهض أختى غير مستوعبة لما يجرى ، وتندفع أمى خلفى ، ولا نسترد وجودنا وأنفاسنا إلا بين يدى أبى .

جدتي أميمة واقفة مع خالتى ضحى أعلى السلم تسكبان دمعاً بارداً ، ولا نتناول الإفطار إلا وأبى بيننا .

يمد أبى يده لكنه لا يضع اللقمة اليابسة فى فمه إلا وهو يعتذر عن عدم قدرته على مشاركتنا الطعام لأنه تناول شيئاً ساعة خروجه من الحبس .. لكن الهم الظاهر على وجهه يجعلنا لا نصدق قوله .

بعد قليل تسأله أمى :

– كيف جئت يا أبا إبراهيم ؟!

فيقول باسماً :

– مثل الناس

تعود أمى لتسأل :

– الوقت مبكر والسجن ليس قريباً ؟!

– ..

– هل يطلقون المحابيس ليلاً ؟!

يقول وابتسامته الحزينة المنكسرة على شفتيه :

– بل بكرت بالخروج ببركه الفريق العمرى

– كيف ؟!

– لقد علم مثل الناس بحكم محكمة أمن الدولة ببراءتى مع الآخرين فحمل أمر إطلاقنا إلى السجن وأصر على توصيلى بنفسه .

– أنت وعمى ؟!

أسأله فتذوى ابتسامته ويهز رأسه نافياً ، ثم يهمس كمن يكلم نفسه :

– لقد جئت إليكم قبل بيت الشمس لأنى لا أعرف ماذا سأقول لأمى وأختى .

– ..

– كيف سأقابلهن بدون أخى عبد الستار ؟

- ..

- على كل حال سأذهب إليهن الآن

- وستعود إلينا ؟؟

تقولها أختى ، فتدمع عين أبى ، ويمسح شعرها ، وينظر نحوى ليخرج من حرج السؤال ويقول :

- وأنت لا تتأخر عن المدرسة .

* * *

ليلة أول جمعة لنا مع أبى أعد نفسى بسهرة طويلة بعد العشاء ، لكن التعب الذى استنفدت معه كل طاقتى فى اللعب خلال النهار يقودنى فى ليل الشتاء الطويل إلى نوم عميق حتى أنى لا أشعر كثيراً بأوجاع أختى وبكائها المتواصل من آلام ضرسها وتناوب أمى وأبى مع جدتى السهر للعناية بشذى ، فلا الإسبرين ، ولا براعم القرنفل ساعداها كثيراً على تخفيف آلام ضرسها المسوس ، لذلك نتناول الإفطار مبكرين ونتوجه نحن الثلاثة ، أبى وأختى وأنا ، إلى دكان الحاج فرسك فى باب السبح لاقتلاح هذا الضرس اللعين ، والكشف عل أضراسى من باب تشجيع أختى وقطع دابر خوفها وترددها .

كنت أظن أن سيرى مع أختى بجوار أبى سيلفت انتباه من سنقابلهم من جيراننا حال خروجنا من باب دار البرهان .

أول من نقابله هى جارتنا (أمى خديجة) من بيت الشهيد تتهيأ للجلوس عند باب كوخها الصغير ، لتتدفأ - كعادتها - تحت ضوء الشمس الدافئة .

نصبح عليها ، ويسألها أبى عن حالها ، فلا تنقطع دعواتها من خلفنا ونحن نسير .

يقول أبى :

- هل تعرف أن لحمتكم التى لم تنقطع من هذه المرأة !!

أقول له :

- لقد حملت لنا بالأمس فاكهة وأنت فى زيارة عمتى وقالت لأمى إنها هدية

قدوم المبروك الذى فرج الله عنه !!

فيجيب أبى بنبرة حزينة :

– ولم يفعل ذلك غيرها

* * *

أمام قبة الجامع أحس يد أبى تجرنا للجهة الأخرى ، وقبل أن أسأله إلى أين وباب السبح أمامنا أشاهد حارس السجن الفطن فى الناحية المقابلة فأهمس :

– أبى ، أبى ، ذاك حارس السجن الفطن.

فيرد أبى وهو يواصل سيره مبتعداً :

– أعرف لا أريد إحراجه ..

لكن الرجل كان أذكى فقد لوح بعصاه فى الهواء ورفع صوته وهو لا ينظر نحونا قائلاً :

– يارب احفظهم واحفظنا واحفظ المؤمنين

فيهمس أبى :

– آمين .

* * *

على يسار الداخل باب السبح صدع صوت، فرأيت رجلا واقفاً بين صناديق الفاكهة المرصوصة من داخل الدكان حتى خارجه ، وعليه ظلة من البلاستيك .

يسلم أبى على الرجل من بعيد ، لكن الرجل يرفع صوته قائلاً :

– السلام واجب يا عم محمد !!

فنقترب من صاحب دكان الفاكهة ذى الشعر الأجعد المدهون المنسدل حتى أذنيه وقذاله ، وعلى رأسه كوفية خيزران .. يمد الرجل يده وهو يقف بين صناديق الفاكهة ، فيمد أبى يده مصافحاً وعلى شفتيه ابتسامة يشوبها القلق .. متجنباً ارتباك عينيه ، يسحب أبى يده ويقول لى :

– صافح عمك على !!

فيصافحنى الرجل ويقول وهو ممسك بيدى :

- هذا ولى العهد ؟!

- ..

- ولدك يا عم محمد ؟!

- نعم ولدى !!

يرسل الرجل يدى ويعطينى أنا وأختى شيئاً من صندوق الفاكهة ، يحرك أبى يداه ليمسك بأيدينا ، فيقفز الرجل بخفة من بين الصناديق حالفاً بالله أن ضيافة أبى واجبة عليه ، فيرتفع صوت آخر من خلفنا :

- وضيافة أخرى على عمك حيدر يا حاج على ..

ونلتفت فإذا نحن برجل مكتنز الجسم ، محتزم الوسط ، عيناه بارزتان قليلاً ، وعلى رأسه عصابة شال متميزة .

يقترب الرجل ويسلم علينا وهو يقول لصاحب الدكان :

- قل ليحيى يا حاج على يسلم أبو هاشم مصروف بيت ، سكر ورز وسمن .. قل له مصروف شهر من بضاعة عدن .

* * *

لا يوجد عند دخولنا دكان الحاج فرسك الضيق الصغير سوى كرسى عتيق أمام مرآة صدئة وتحت دولاب خشبى بال ، وكنبة بطول الدكان .

يسلم أبى على الرجل المشغول بحلاقة رأس شيخ أشيب ، ويجلس وعلى حجره أختى وأجلس بجواره فى انتظار الحاج الذى يثرثر حتى ينتهى من رأس الرجل .

يقول الحاج فرسك وهو ينفض خرقته التى انتزعها من حول رقبة الرجل وصدره .

- هذا أنا يا أبو هاشم كما تعرفنى .. أربعون عاماً فى الدكان نفسه ولو غيرته من جوار المجزرة لضيعت كل زبائنى.

فينهض أبى ممسكاً بيد أختى ويقول :

– هذه ابنتى شذى وقد وعدتها بأنك ستعمل لهامخدراً فلا تحس بخلع ضرسها .

– إطلاقاً ..

يقولها الحاج فرسك وهو يضع أختى على الكرسى ، ثم يأخذ علبة بخاخ الماء التى استخدمها لبل شعر الرجل الذى حلق رأسه ، ويطلب منها فتح فمها ليبخ فيه بختين ، أو ثلاثاً ، زاعماً بأنها لن تحس إلا والضرس فى يدها .

يطلب منها أن تبصق فتبصق ، ويمسك أبى برأسها ، ويحس الرجل الضرس المسوس بسبابة يسراه ، ويده اليمنى خلف ظهره ممسكة بالكلابتين التى يحشرها فى فم أختى ، ويبدأ فى نزع ضرسها ، فتصرخ صرخة تقتلعنى من محل جلوسى خلفها ، وأقفز خارج الدكان ، وأركض أسابق الريح خوفاً وأنا أرتجف وأتلفت خلفى حتى أبلغ دار البرهان .

* * *

لا يتناول أبى شيئاً معنا فى وجبة الغداء إلا قليلا من الحساء ثم فنجاناً من الشاى مع قرص من الإسبرين لتخفيف الحمى التى بدأت فى سلق جسده .

بعدها يستند إلى وسادة خلف ظهره ويحمد الله على كل حال . ويؤكد لنا أنه قد تحسن بعد تناول كوب الشاى وقرص الإسبرين فشعرنا بارتياح قليل .

تقترح عليه أمى ، وهى تصب له فنجاناً آخر ، أن نستدعى له الطبيب ماريو فيرفض بحجة أنه يتحسن ، لكنه فجأة يسألها إذا كنا لا نزال نستلم راتبه ، فترد عليه بأن آخر مرة استلمنا فيها الراتب كانت قبل شهرين يوم ذكرت له ذلك فى قصاصة الورق التى أرسلتها فى علبة السجائر ، لكنها تذكر له إن كان يحتاج شيئاً فلم يزل معها حبة ذهب مما أعطته لنا عمته أم القاسم قبل سفرها ، إضافة إلى نصف حبة الذهب التى أعطتها لى خالتى ضحى .

ينعقد حاجبى من الدهشة ، لأنها أول مرة أسمع فيها بسفر القاسم وأمه .

يقول أبى

- الله يودعهم السلامة ..

تقول أمى :

- وكيف عرفت بسفرهم ؟!

يجيبها :

- وهل تظنين لأننا فى السجن فإننا لا تصلنا أخبار الناس ؟! الحبس يا أم إبراهيم حبس القلوب .. إذا احتبس القلب احتبس كل شىء ، وإذا تحرر ؟!

- ..

- يهون كل شىء

أتابع حوار أبى مع أمى ، بينما تكون أختى منشغلة بالنظر من النافذة وتقليب دميتها التى صنعتها جدتى من القماش منذ سنين ، ثم أنشغل بذكرى ما جرى لى فى بيت الشمس ليلة اختفى القاسم مع والدته وأنا أظنهما باقيان فى حارة خضير حتى سماعى نبأ سفرهما قبل قليل .

* * *

فى المساء تدخل جدتى غرفتنا وفى يدها الموقد ، وتبدأ فى وضع قليل من البخور على الجمرات ، فيتصاعد الدخان وتقول أمى :

- اغلق الباب يا إبراهيم حتى لا تفقد الغرفة دفئها .

لكن إغلاقه لا يساعد أبى فى الشعور بالدفء فقد بدأت نوبة حمى خفيفة مع رعشة ظاهرة تداهم جسده مرة أخرى .

تصر جدتى على أن تأتيه بزيت الخردل لتدهن أمى جسده المحموم ، لأنها إذا دهنته قبل أن ينام وغطته بدفاء غليظ بعد تناوله الأسبرين فسيغمره العرق ، وتزول عنه الحمى ، وبينما تطلب منى جدتى أن أذهب لأنام فى غرفتها نسمع طرقاً شديداً على باب الدار فنتسمر فى أمكنتنا ويقول أبى :

- خيراً اللهم اجعله خيراً ..

تتقدم جدتى أميمة محاولة تبديد الخوف وتقول :

- ربما يكون الطارق هو الحاج صالح الحارس يريد شربة ماء ، عادة ما تملأ

جواهر جرته قبل المغرب ولعلها اليوم نسيت ..

لكن أبى يمنعها من الخروج ويقول :

– لا ، سأذهب أنا لمعرفة من فى الباب.

وقبل أن تتدخل أمى نسمع صوت جواهر من بعيد وكأنها تجيب الطارق وتحاوره ، ثم تقترب خطواتها ، وتطرق باب الغرفة نقراً بأصابعها وتقول :

– أنا جواهر ..

فيطلب منها أبى أن تدخل ، فتدخل لتقول :

– هذا رجل يقول إنه قاسم صلالة !!..

فترد جدتى مفزوعة :

– وماذا يريد فى مثل هذا الوقت ؟!

تقول جواهر :

– يقول إنه يريد أن يكلم أبو إبراهيم ضرورى ..

ينهض أبى ويقول :

– هذا قاسم السواق ، ربما أرسلته الوزارة بعدما علموا بخروجى من السجن .

توقفه جدتى وتقول :

– لا يا أبو إبراهيم .. أنت تعرف قاسم من الوزارة وأنا أعرفه من قبل الثورة الرجل قليل أصل ولا يؤتمن .

لكن طرق الباب يتواصل بعنف فيسرع أبى وتتبعه أمى ، لتضع على ظهره وكتفيه شالاً من الصوف ، وتمنعنى جدتى من اللحاق به ، وتطلب من جواهر أن تتبعه بسرعة ، فنسمع بعد قليل إغلاق باب الدار ، ونرى جواهر تعود دون أبى وتقول :

– لقد أخذ العسكر أبو إبراهيم، وقال قاسم أن ترسلوا لعمى محمد الفراش والبطانية !!

عم عبدالحميد

صباح اليوم ليس مثل كل صباح ..

البكور له ملوحة الشجن ، وفراغ مكان أبى يقابلنى فى كل اتجاه ..

خبز الإفطار لا تكاد أضراسى تقدر عليه ، وجواهر كعادتها سريعة الحركة وربما أكثر نشاطاً وحيوية .

ترتاح أمى لإصرار هذه المرأة على عدم مشاركتها فى الصعود والنزول إعداداً لطعام إفطارنا وتقديمه لنا لظنها بأن أمى - مثل الآخرين - لم تذق النوم خوفاً وقلقاً وأرقاً ولا أحد - حتى الآن - يعرف أين أبى وإلى أى مكان سنرسل له فرشاً وبطانية وطعاماً .

أرى أمى تأتى بكيس المدرسة من غرفة جدتى أميمة التى كانت تريدنى أن أنام فى غرفتها ليلة أمس فأصرح لها أننى لا أريد الذهاب إلى المدرسة بحجة غياب أبى فتناولنى الكيس وهى تقول :

- ماذا ستقول لأبيك لو بلغه أنك لا تذهب المدرسة ؟!

- اليوم فقط ولن يعرف !!

- ألم تسمعه يقول إن أخبارنا تصل إليهم ؟!

- قد تحتاجون لشىء !؟

تتدخل جواهر التى تجمع من أمامى أوعية الإفطار وتقول :

- وما عملى أنا ؟!

تناولنى أمى كيس دفاترى وتقول :

- هيا يا ولد .. انهض ولا تخيب الظن فيك

فأسير نحو المدرسة وفى مخيلتى صورة أبى معاتباً حتى أحس بحماس أشد للحضور.

فى طريق عودتى من المدرسة أرى جارنا محسن زميل أبى فى الوزارة ينادينى وهو واقف أمام باب دارهم القريبة من بيت الشمس ، فأدخل معه الساحة الصغيرة ، ويطلب منى الانتظار بعد أن يسحب خيط فتح الباب من الداخل حتى لا يفاجئنا أحد ، ثم يخرج ويقترب منى ليدس مغلفاً ورقياً فى كيس دفاترى ويقول :

– هذا مرتب والدك .. سلمه له ، وسلم عليه من عمك محسن

– لكن أبى فى الحبس !!

– كيف ؟! ألم يخرج قبل يومين ؟!

– بلى ولكن قاسم جاء ليلة أمس وأخذوه إلى الحبس .

– قاسم من ؟!

– قاسم صلالة .. قال أبى إنه يعمل معكم فى الوزارة !!

– قاسم اللعين هذا لم يعد معنا فى الوزارة ، إنه الآن يرافق الخبراء العرب .

– العرب ؟!

– المصريون

– ...

– كيف أخذوه ؟!

– قالت جواهر إن العسكر كانوا مختبئين خلف البيت وإن أبى كان يظن أن أحداً من الوزارة قد أرسل قاسماً !!

– مصيدة إذن

– ؟؟ ..

– وأين أبوك الآن ؟!

- لا أدرى !

- المهم سلم الراتب لوالدتك الآن ، لا تتأخر وقل لها أن لا تخبر أحداً لأنهم لو عرفوا لسجنوا نصف الوزارة .

* * *

مضيت نحو دار البرهان وأنا أفكر وأحدث نفسى فى مسألة أبى وتوصيل طعامه وفراشه .

نحن لا نعرف شيئاً عنه ، ولا أين استقر به الحال ، ولا أظن أنه بإمكاننا سؤال قاسم .. هذا اللعين الذى نصب شركاً لأبى ، لأنه بفعله ذلك يجعل من الصعب إن لم يكن مستحيلاً أن تذهب إليه جواهر لمعرفته السابقة به !

أسأل نفسى :

- هل أعود لجارنا محسن لأنه بحكم الجوار وزمالته لأبى وصداقته الوثيقة به يمكن أن يفيدنا بشىء ؟

- إنما لو كان بإمكانه فعل شىء لقال لى حين التقيت به وعرف بالأحوال ، لكن العكس هو ما حصل ، لأننى لاحظت تغير لهجته بعد أن علم بسجن أبى بعد إطلاقه ، وإلا لماذا التشديد علينا فى كتمان خبر استلام الراتب ؟! وهل حقاً أن نصف موظفى الوزارة مهدد بالسجن لو علموا بالخبر ؟! ومن هم هؤلاء الذين (لو علموا) ؟! خصوصاً بعد أن تمت محاكمة علنية لأبى وتمت إذاعتها وحكم محكمة أمن الدولة ببراءته ؟!

أقول : ربما لأنه أعيد إلى السجن بعد يومين من إطلاقه !! وإن الأمر ربما يعتمد على مسئولية من أطلقه ومبرر من أعاده إلى السجن ؟!!

وإن كان من أعاده إلى السجن هو من أطلقه بعد محاكمته فلماذا إعلان براءته وإطلاقه فى الإذاعة ؟!!

هل يمكن أن يلعب الفريق العمرى أى دور ، وكيف يمكن الوصول إليه ؟!؟!

أحس أن الأرض تضيق بى على اتساعها ، وأنها أضيق على لأن أمى وعمتى

وجدتي قد عانين كثيراً في الليالي الأولى للثورة - حين كنت صغيراً - للوصول إلى أبي وعمي في سجنهما لكنني الآن أتحمل مسئولية وعلى المشاركة ، فماذا يمكن لي أن أفعل ؟!

أقترب من دار البرهان فألاحظ وقوف سيارة على مقودها سائق في بدلة عسكرية وهو يدخن سيجارة وخلفه يجلس عسكري بين يديه بندقية آلية فلا يلفت انتباهي إلا قربها من باب الدار .

أدخل من باب الحوش فأرى قدام باب الدار شاباً أسمر البشرة ، طويل القامة، في بدلة صوف عسكرية ، وعلى جنبيه شارات تدل على رتبة رفيعة .

يلتفت الرجل لدخولي وفي عينيه بريق من وجد شيئاً يبحث عنه فأتوقف مشوش الذهن لا أقدر على قول شيء - إن كنت سأقول شيئاً - لكنه يبادر ويقول مخاطباً أحداً من النساء خلف الباب :

- ها هو إبراهيم قد وصل ، ألم أقل لك لا تقلقي عليه

ثم يمد يده مصافحاً ودهشتي تعقد لساني :

- أين كنت يا رجل ، لقد أقلقت الناس عليك ؟!

تهزني عبارته كثيراً ، فهذا أنا الفتى في المدرسة الإعدادية لم يخاطبني أحد على الإطلاق بعبارة (يارجل) ، ولم يقابلني أحد - غير أبي وأمي وجدتي - بهذا القدر من الإهتمام والشعور بقلق الآخرين ، لأني تأخرت قليلاً عن موعد عودتي قبضته الفتيه الدافئة لم يزل أثرها على كفي ، وشعور بانتماء لعالم كنت - حتى اللحظة - أحس أن بيني وبينه حواراً مفقودا وصلة مقطوعة ، وإن أقحم نفسه في عالمي منذ فجر الثورة حين سجن أبي ، وقتل صاحبي وجدي . وشرد عمي وابن خالي ، وأرمل جدتي ، وأيتم أمي ، وفرق أهلي ، وشتت شملي ، هذا هو عمي عبدالحميد الذي تحدثت عنه عمتي أسماء ليلة هروب عمي عبد الوهاب ..

الضابط في الجيش الذي كان خارج المدينة ليلة الإنفجار .

قالوا إنه جاء في مهمة ؟!

وقالوا إنه سيقضى إجازة العيد فى بيت الشمس مع جدتى (زوجة الأب) وعمتى التى كفلته بعد يتمهما ، وموت أمه فى فيافى جبال منطقة الهجرة ، فجاء صنعاء وعمره لم يتجاوز التاسعة أو العاشرة .. لقد كان سنه أكبر قليلاً حين جاء إلى صنعاء من عمرى ليلة انفجار الثورة ، فماذا كان دوره فيها ؟؟

قيل : كان من ضباطها ، وقيل إنه ساق رجلاً مهماً من رجال العهد السابق إلى صنعاء ويقال إنه الآن رجل مهم فى جيش الجمهورية المرابط فى المناطق الشمالية الشرقية .

تقول أمى إنه جاء لأخذ ما طلب أبى إليه فى السجن وإنه سيرسلها مع أحد مرافقيه إلى سجن القلعة حيث سجنوا أبى ، فأين يقع سجن القلعة هذا ؟!

* * *

خلافاً لوعد عمتى ، وتوقعى زيارة أبى مع نديم يوم وقفة العيد، يحاصرنى فى مطبخ بيت الشمس أختى زهرة ونديم ومنصور بأحاديث مقتضبه عجيبة ، وحركة سريعة فى مطبخ ضيق غابت عنه جدتى بتول ، وتأتى إليه عمتى متأخرة ، فأحاول تذكيرها بما وعدتنى ، فتتشاغل بالبحث عن قوارة الخبز ، وتأتيها زهرة بقوارة أخرى وحيرتى بالغة فلا أنتبه إلا ويد عمتى تمتد لتناولنى الخبز الملفوف فى قوارته ، فأحس أنه أكثر من الأيام الفائته ، وقبل أن أقول شيئا تقول عمتى :

– باقى عليك اليوم ، لأن غداً عيد ، ولن نرسل لعمك شيئا ، لا معك ولا مع غيرك ..

تفاجئنى كلماتها وما يجرى حولى ، وألتفت يمنة ويسرة لعلى أجد تفسيراً أو فرصة لقول أى شيء فلا أجد إلا نظرة مسترقة أو بسمة مفتعلة ، وأرى عمتى التى لازلت أعول على وعدها تخرج من باب المطبخ وهى تنادى نديم ابن عمى أن يلحق بها لتعطيه بعض كعك العيد لأبى فى سجن القلعة ، ويتبعها أخوه منصور وهو يقول لى:

– انتظرنى عند القهوة حتى أحضر نصيب حبس الرادع من كعك

العيد ..

ويبقى المطبخ فارغاً إلا منى ، فأحس بشجن غريب وأسرع الخطو حاملاً قوارة خبز عمى ، ماسحاً بطرف كمى دمعى الذى يتساقط رغما عنى ولا أريد أن يراه أى أحد ، رغم حرقتى ورغبتى فى البكاء .

قدام قهوة سمير أتعجب لأنها مغلقة .

يقبل محمود ابن عمى حسن مسلما ، وأحس أنه يختلق حديثاً ويريد جذبى لدردشة مفتعلة ، فأجاريه رغم ضيقى الشديد مستغلا الفرصة لأسألة عن سبب أغلاق المقهى الذى يبقى مفتوحاً حتى ساعة متأخرة من الليل .

يقول محمود :

– بينى وبينك ، يبدو أن عمى عبد الحميد هو من أغلق المقهى وسجن ابن خالتك فى المباحث ، وحذار أن تقول لأحد وإلا حبسوك مع ابن خالتك !!

– وما ذنبى أنا ؟!

– أنت لا تعرف ، يوم أن جاءت سيارة الشرطة لإغلاق المقهى وأخذوا معهم ابن خالتك ...

– ليس ابن خالتى !!

أقولها مقاطعاً بنزق ، لكن محمود يواصل القول :

– المهم أنهم كادوا أن يأخذوا معهم أخى منصور ، لأنه كما تعرفه عاطفى وفضولى ولا يحسب حساباً لما يقول لولا تدخل عمى عبد الحميد قبل سفره.........

يقطع كلامه ويسرع داخلاً وهو يوصينى أن لا أقول شيئاً مما قاله لأحد ، خصوصاً لأخيه منصور الذى يقبل من الناحية الأخرى ، وأراه يمسك بمحمود من ياقة ثوبه ، ويصيح فى وجهه :

– سأريك يا بطل كيف يفعل الناس ...

– ....

– لماذا تأخرت وقد أوصيتك بسرعة اللحاق بنا .

يبعد محمود يد أخيه ويقول :

– أنت من يختلق المشاكل دائما ، فاتركنى .

ويمضى منصور غاضباً وهو يقول :

– لك هذه المرة ، سأحمل غداء عمى إلى الرادع ، لكن والله إذا لم تذهب أنت غداً فسأفعل بك ما يجعلك تندم على عدم استماع قولى ....

يجيبه محمود وهو يبتعد :

– غداً يوم عيد وبعدها يحلها الحلال .

ويخرج منصور غاضباً ، مسرعاً دون التفات أو كلام معى فأركض خلفه متحاشياً إثارته حتى أسلم من لسانه .

***

قبل باب سجن الرداع يتوقف منصور ، حتى إذا ما اقتربت منه ، وهو يتسمع خطواتى الراكضة خلفه ، يلتفت وينتزع من يدى قوارة خبز عمى وهو يقول :

– هات هذه اللقمة حق الأولاد الغنجيين .. حضورك وعدم حضورك سواء ، لا فرق لأنك تحمل الخفيف ومعى الثقيل الساخن ...

وتقع من يده حبات الكعك على التراب ، فينظر نحوى بغضب ويقول :

– كل هذا بسببك .. لو سلمت مجيئك معى لكنت قد وصلت الآن ....

– ....

– يلاه ، روح لك وحدك إذا كنت لا تخاف ، عد لأمك بعد المشوار الذى لم تفعل فيه شيئاً يا غنجى .

ويجلس لألتقاط حبات الكعك التى تفتتت وامتلأت ترابا ، وهو يمسحها بكمه فيزيدها اتساخاً ، ثم ينفخها فتبتل بلعابه ، وأنا منزو أستند بظهرى مهموماً مكتئباً على جدار قريب حتى ينتهى ويدخل السجن بالكعك والغداء والخبز ، ليخرج بعد قليل مسرع الخطوات وهو يردد فى نزق :

– لازلت هنا ؟!! ألم أقل لك إنك تخاف أن تعود لأمك دون رفيق صح أم لا ؟!

هكذا حال الأولاد المدللين .

ويظل يكرر عبارته حتى نصل مفترق طريق بعيد عن بيت الشمس فيتوقف ليقول ساخراً :

- هيا اذهب إلى بيتكم لوحدك لأننى سأدخل السكن الداخلى للطلبة ، وأصحابى لا يعرفونك ، ولا مكان للأطفال هناك ....

فأسير وحدى وأنا أعرف أنه يكذب وقدامى صورة أبى الذى لا أعرف طريقاً لزيارته مختلطا بطيف عمى عبد الحميد الذى لم أره منذ التقائنا الخاطف أمام دار البرهان وأصداء وعد عمتى بزيارة أبى التى لم تتم لسبب لا أعرفه ولا سبيل مع منصور لمعرفته .

***

العيد

على انكسار حدة ظلام الليل تدعوني أمي للنهوض حتى أصلي الفجر .

بعد أداء الصلاة تتردد أصداء صلاة العيد من المسجد المجاور وترفع أمي ثوبي الجديد بين يدها ثم تستعجلني لألبسه وألحق صلاة المصلين .

جديد العيد اليوم ليس ذبح الأضاحي فلا أظن أننا أو أحد جيراننا سيفعل ذلك لأن الجميع بالكاد يوفر مصاريف عيشه ، كما أن ارتداء ثياب جديدة لم يعد جديداً بالنسبة لي ، لأنني لم أعد أستمتع به كثيراً وإن كان يجعلني أحس أن مظهر أختي ومظهري دليل للآخرين على مقاومتنا للظلم الواقع علينا ، وأن مظلوميه أبي لم تقطع آمالنا ، وأن قدرتنا على العيش والبقاء لا تقل عن غيرنا .

لكن جديد هذا العيد هو نصف ريال أعطته أمي من راتب أبي لجواهر حتى تدبر لي زيارة أبي في سجن القلعة الذي قيل إنه في طرف المدينة القديمة.

يغمرني فرح يشوبه بعض القلق بعد سلامي على أمي وجدتي ، وخالتي ضحى وعمة أمي نجيبة ، وأسير نحو بيت الشمس أتلفت يمنة ويسرة لأسلم على معاريفي وجيراني ، ثم أتحسس جيوب سترتي الجديدة العامرة بشئ من الزبيب ونقود عسب العيد عند دخولي باب بين الشمس .

لقد قارب ما عسبتني النساء الثلاث ريالا كاملاً ، فماذا عساني أن أضيف إلى ما في جيبي في أول عيد تغيب فيه أم القاسم ؟!

أصعد درجات السلم في بيت الشمس قفزاً وفي مخيلتي لقاء أبي ، وسعادته الغامرة برؤيتي ، ثم أخفف سرعة خطواتي متثاقلاً عند دخولي غرفة الديوان حين

يطرق مسامعي صوت منصور ، أعلى الأصوات .

يقف الجالس على يميني فيكون أول من أسلم عليه ، ويتتابع الوقوف وسلام العيد بحرارته المعروفة ، تصنعاً وغصباً ، أم صدق مودة وحباً .. حتى سلام منصور كان دافئاً ..

تدخل عمتي أسماء فيسكن الجميع ، وتخفت الأصوات ، وثوبها الهادئ الجميل لا تدري إن هي استلمته لتوها من صانعته الماهرة أم هو معها منذ تم زفافها إلى بيت الإمام قبل أكثر من ثلاثين عاماً .

ابتسامتها الدافئة على شفتيها واللامعة في عينيها تشيع سكينة تتضاعف حين أنحني لتقبيل ركبتها ، فتتلقفني بيد حانية ، وترفع رأسي قبل وصولي إلى ركبتيها لتطبع قبلتها على خدي وهي تستعد لسلام من يسلم عليها من بعدي .

تجول عمتي بنظراتها بين الجالسين الذين يمد بعضهم يده لالتقاط كعكة فتقول:

– انتظروا حتى تأتيكم أمي وأختكم زهرة بالخبز ، والفطور ، والقهوة !

فأنتظر كالاخرين ، وأتقرفص في بقعتي ، وأتشاغل بالنظر في الفراش بعيداً عن أنظار الآخرين ، متخيلا نفسي مع جواهر في زيارة أبي ، ثم يدفعني الفضول لتسمع أحاديث الآخرين الصاخبة – بعد خروج عمتي – عساني أعرف ما حصلوا عليه من نقديه العيد وعسبه .

أرفع بصري فأرى منصور – الذي خفت صوته قليلاً – وهو يشير نحوى بأصبع كفه المدسوس في ثوبه ، بين ركبتيه ، وأسمعه يقول لأخيه نديم :

– انظر إليه ... إنه يلبس أحسن مني ومنك حتى وأبوه في السجن !!

***

تدخل جدتى بتول بالقهوة ، تتبعها أختنا زهرة وهى تحمل وعاء الطماطم المطحونة مع الفلفل الأخضر الحار وشئ من الكزبرة .. هذا هو الفطور الذى يجمعنا حوله كل عيد عند عمتنا أسماء وجدتنا بتول ، حتى ولو كنا قد تناولنا إفطارنا عند أمهاتنا .

يتزاحم الجميع حول طبق (الزحاوق) ، ويفسح لى محمود مكاناً بجواره فيقول منصور :

- انتبه يا ابراهيم فإن محمود نهم ، وسريع الأكل ، وقطعة الخبز الكبيرة فى يده قد تسقط فيتسخ ثوبك ...

ثم يضحك عالياً حتى لا يسمع رد محمود وهو يقول :

- تريد أن تجعل عيوبك فى الآخرين ؟!

فتلتقى كلمات محمود مع صدى صوت أبى حين نهانى :

- صغر لقمتك ، ولا تأكل مثل ابن عمك منصور .

ثم يهمس محمود :

- لا تصدق منصور فهو لا يعى ما يقول .

- ....

- من كثر هداره ، قل مداره .

فيهدأ خاطرى ، وفى ذهنى أطياف آخر عيد قضاه بيننا صاحبى القاسم ، وغرفته التى تجاور هذا الديوان .

لقد كانت نظرات منصور ابن عمى وتعليقاته تتوزع بينى وبين القاسم فتخف وطأة أفعال منصور ، لكننى اليوم دوم صاحبى ووالدته التى كانت تزيدنى على ما تعطى الآخرين من نقدية عسب العيد بعد أن تختلق عذراً لدعوتى إلى حجرتها بعد انصراف الجميع .

تقبل علينا عمتى أسماء وهى تبتسم ابتسامتها المعهودة حين توزع علينا نقود

معايدتها فيتهلل وجه منصور كثيراً ، ويبقى كل واحد منا فى مكانه ، وهو يتمنى لو قفز لأخذ نصيبه قبل الآخرين ، وكل من تعطيه عمتى عسبه يقلبه فى يده ويراقب الآخرين فى الوقت نفسه ليعرف مقدار النقود التى أعطته له عمتى مع أنها لا تعطى أحداً أكثر من الآخرين .

اتخلف قليلاً عن الخارجين لتزاحمهم عند الباب ، وجدتى بتول من خلفهم تصيح :

– هيا .. كل واحد عند أمه ، إلا الذى لم يشبع

وحين لا يجيبها أحد تقول :

– هل شبعتم جميعاً ؟!

فتتعالى أصوات الخارجين :

– الحمد لله .

فتقترب منى ، وتدس يدها فى جيب سترتى ، وتهمس فى أذنى :

– خذ لك كعكة من حق جدتك ، وانتظرنى عند المخزن أسفل الدار لأن لك غرضاً عندى ! ...

***

ينتظرنى منصور بعد أن يفتقدنى بين الخارجين ، وينتظر معه محمود بعد أن يذهب نديم لزيارة خاله ، وهو يظن أنهما ينتظران حتى مجئ أحد أقاربنا لينقدهما عسب العيد ، وحين يضيق صدر منصور يرسل أخاه محمود ليتحقق من أمرى .

يدخل محمود وأنا أمام المخزن فى انتظار جدتى فيفاجأ بوجودى ويسألنى مرتبكاً :

– هل رأيت أخى منصور ؟!

فأقول :

– الحمد لله أنى وجدتك لوحدك ...

وأعطيه نصف ما أعطتنى عمتى لأنه أحب الجميع ، وحين يتردد فى أخذ ما أعطيه أقول له :

– أسرع قبل أن يراك أحد .

فيخرج مسرعا ، وتقبل جدتى بتول ، وتخرج من جيب ثوبها مفتاح مخزنها ، ثم تستخرج سفرجلة من وعائها وتعطيها لى بعد أن تزيل منها الجزء المعطوب ، ثم تمد يدها إلى كوة صغيرة وتمنحنى أربع بقش ، قطعة واحدة من المصكوكات الأحمدية ، وتقول لى :

– هذا عسب جدتك بتول وحاذر أن يعرف به أحد ، وإذا قابلت منصور فقل له إنى أعطيتك هذه السفرجلة .

أخرج وأنا أقضم من السفرجلة حتى إذا رآنى منصور تحرك ليدفع أخاه محمود ويقول :

– ألم تقل لى إنه فى الحمام ...

فأمد يدى لمنصور بالسفرجلة وأقول له :

– هذه لنا نحن الثلاثة .. قسمها بيننا لأنك الكبير !

فيضرب كفى الممدودة بعصبية حتى تقع السفرجلة على التراب وهو يقول :

– بعدما أكلت منها !!

ثم يبصق عليها ويمضى خارجاً وهو يقول :

– لا نريدها .. كلها أنت وحدك ..

***

بعد أنتهاء سلام العيد ترافقنى جواهر لزيارة أبى فى سجن القلعة ، ونقطع طريق السائلة صعوداً نحو حارة الأبهر .

لم يزل الطريق طويلاً ، وحديث جواهر المتواصل عن أحلامها ورغبتها فى امتلاك راديو مثل الذى تملكه جدتى أو أصغر قليلا ، ممل ، ولا يشدنى إليه ، لأننى مشدود أصلاً إلى هذا الطريق الذى لا ينتهى .

تفاجئنى جواهر بسؤالى عن مقدار ما حصلت عليه من نقدية عسب العيد فأتحسس جيوبى ، وأذكر لها مقدار ما فيها ، فتطلب منى نصف ريال غير الذى أعطتها أمى حتى تعطيه للرجل الذى سيجعلنى أرى أبى فأعطيها نصف الريال.

قبل باب السجن توقفنى وتقول :

– اسمع .. إن الرجل الذى سيقابله فى السجن لينادى على أبيك لا يريد أن يعرف أحد أننى سأعطيه شيئاً مقابل عمله وإلا حبسونا معه ، هل تسمع ؟!............

أقول لها :

– نعم !!

– أنا سآتى معك حتى بوابة السجن لأريك الرجل ، وما عليك إلا أن تذهب إليه كأنك تعرفه ، وإن كان لا يعرفك قل له أريد مقابلة محمد على وسينادى عليه ، وانتظر حتى يخرج أبوك لتسلم عليه وسأنتظر هناك ...

تقولها وهى تشير إلى ركن بيت قريب .

أفعل تماماً ما قالته لى جواهر ، وينادى الرجل على أبى ، فيخرج فى قيده المربوط بين ساقيه والمشدود بخيط ليرفعه قليلاً عن كاحليه .

يسألنى أبى :

– كيف جئت ؟!

– مع أمى جواهر

– ولماذا لم تأت مع أحد أولاد عمك ؟!

– لأن أمى جواهر هى التى اتفقت مع الرجل ...

– لأن أمى جواهر هى التى اتفقت مع الرجل ...

– أى رجل ؟!

– الذى نادى عليك ؟!

– كيف ؟!

– أعطته أمى نصف ريال ليسمح لى برؤيتك ؟!

– نصف ريال ؟! هل أمك مجنونة ؟؟!!

– لماذا ؟!

– لأن ابن عمك نديم لو أعطى الرجل نصف ريال كل يوم حين يأتينى بالطعام لما كفانا مال قارون .

– ....

– عموماً حصل خير ، قل لأمك أن تحذر هذه العقربة ... أين هى الآن ؟!

– تنتظرنى خارج الحبس !!

– قل لها تسلم على قاسم ابن خالتها .

– ؟! ؟!

– وسلم أنت عليهم فى الدار وفى بيت الشمس ...

– لا أحد يعرف بزيارتى لك سوى أمى وجدتى أميمة

– سلم عليهن وقل لهن ما قلت لك .

***

أعود إلى دار البرهان ولا أقول لجواهر شيئاً كما لا أذكر لها اسم قاسم أو غيره بعد تحذير أبى ، لكن خالتى ضحى تعرف بالقصة كاملة من أمى.

تدخل خالتى غرفة نوم جواهر وتقول لها :

– هذا ابراهيم الذى يعتبرك مثل أمه .

فتتعجب جواهر لقولها وتجيب :

– وهو عندى بمنزلة ابنى !!

– إن كان لك ابن !

تقولها خالتى ، وجواهر صامتة فتعود لتقول لها :

– مادامت المسألة هكذا فلماذا أخذت منه نصف ريال ؟!

– لأعطيها للرجل الذى ...

– متى سيأتى ؟!

– غداً !!

– إلى هناك ؟!

– إلى هنا ؟!

– إذن سلمينى النصف ريال وسأعطيه أنا إذا جاء ..

فتناولها جواهر نصف الريال الذى أخذته منى ، لكن خالتى تطلب منها نصف الريال الآخر الذى أخذته من أمى .

***

لم تعد جواهر معنا – كالعادة – للسمر بعد تناول العشاء ، ولسبب غير ظاهر اكتشف أن نديم ابن عمى هو سبب قناعة عمتى بتأجيل زيارة أبى ، كما أنها بدافع الشفقة والتعاطف ترى أن سنى ، وبعد سجن القلعة ، ووقت ذهاب نديم لحمل طعام أبى فى عز الظهر غير مناسبة ، لكن تنفيذ وعدها بالزيارة لأبى يأتى متأخراً ليتم فى أول جمعة بعد العيد ، ولا أعرف فيما إذا كان خبر زيارتى لأبى مع جواهر قد بلغها أم لا ، فالجمعة يوم أجازة ، ووقت الزيارة أبكر ، وحرارة الشمس أخف .

يذهب منصور مع محمود حاملين طعام عمى عبد الستار إلى سجن الرادع القريب ، وأرافق أنا نديم إلى سجن القلعة ، وهناك ألاحظ أن أبى الذى نسلمه

(سفرطاس) الطعام وكيس الخبز يسلم كيساً لنديم فيه من خبز (الكدم) الذى يوزعونه عليهم داخل السجن.

بعد خروجنا يطلب منى نديم الانتظار ويتجه هو نحو السوق القريب من القلعة ليبيع الكدم هناك ويقبض ثمنها ، وحين يلاحظ أننى أتابعه بنظراتى التى تريد أن تطمئن إلى أنه لن يتركنى .

وسنعود معاً إلى البيت يظن أننى قد أقاسمه البقش القليلة التى باع بها الكدم.

نمضى فى طريق عودتنا صامتين لا يكلم أحدنا الآخر ، ولا أحاول ابتداء قول شئ ؛ خشية إثارته ؛ ولأننى أضمر له احتراماً لاحترام عمتى له ولأنه أكبر إخوته ، وقليل الفضول ، وعف اللسان ، وكثيراً ما دفع عنى أذى أخيه منصور ، لكنه يشدنى فجأة من ياقة ثوبى أمام باب مدرسته ويقول :

– أنا أعرف أنك رأيتنى أبيع الكدم ، لكن والله إذا قلت شيئاً لأحد لطرحتك أرضاً وبصقت فى فمك ...

ثم يتركنى ليدخل مبنى السكن الداخلى للطلاب بعد أن يقول :

– المهم نحن كالأخوة ، وقد نبهتك !

فأسير دونه متذكراً موقف أخيه منصور لتشابه المكان معزياً نفسى بأن تحذير نديم أفضل من ثرثرة هو وأنا فى غنى عنها ، ولا أرى أبىّ بعدها إلا من الجمعة إلى الجمعة .

فى بيت الشمس

هذه أول جمعة لنا فى أجازة صيفية أخرى فى دار البرهان لكن الجديد أن جواهر لا تستيقظ إلا وقد تم ترتيب هروب جدتى أميمة ، وخالتى ضحى ، وعمة أمى نجية ، دون أن تعلم أو تحس بشئ لتلحق النساء الثلاث بابن خالي الذى يقاتل مع الملكيين.

لا تصدقنا جواهر بأن جدتى أميمة ومن معها موجودات على بعد عدة كيلو مترات فى قرية القابل ، يتمتعن بالعنب ، والقات ، والفاكهة الأخرى ، لكنها لا تستطيع المجاهرة بالتكذيب لأسباب منها علمها بأن أحد اخوالنا مستقر فى القرية ، وهو كثيراً ما قام بزيارتنا فى موسم الفاكهة القروية ، وأتانا بالعنب والسفرجل والمشمش والخوخ ، وبالقات من حين لآخر ، لكنها المرة الأولى التى يقوم فيها أحد من دار البرهان بزيارة أقاربه فى القرية والبقاء فيها كل هذه الأيام.

تمضى تلك الأيام بسلام لولا زيارة غير متوقعة لابن خالنا من القرية حاملاً نصف صفيحة من العنب يسلمها لجواهر ويوصيها أن لا تسلم القات إلا لجدتى أميمة الأكثر شغفاً به ، وحين تستيفن المرأة أن النساء الثلاث لسن مع أقاربهن فى القرية ، تستنتج أن أحداً لا يريد لها أن تعرف بأنهن ربما يكن فى مكان آخر ، فتتحمل المسألة على مضض ، وتقاوم رغبتها فى استكشاف الأمر ، لكن يقينها يتضاعف حين ترى سائق سيارة نقل طالما تردد علينا حاملاً رسائل وأمانات من ابن خالى إلى أمى وجدتى ، يجئ هذا الرجل الذى يتنقل بين مناطق الجمهوريين

والملكيين ، ويطلب أمى ليسلمها شيئاً تعتقد جواهر أنه حبات ذهب مع جواب جدتى التى وصلت الطائف ، لأنها استرقت السمع للحوار الهامس المقتضب بين الرجل حامل الأمانة وأمى ، ثم تسلم أمى راتب جواهر عصر اليوم التالى ... حينها تتأكد أن جدتى التى لم تنقطع عن تسليم الراتب بنفسها قد استقرت مع حفيدها فى السعودية إلى ما شاء الله ، ومع ذلك فهى لا تنفس عن مشاعرها المكبوتة إلا حين تقوم بزيارة خاطفة لبيت قاسم صلالة ابن خالها ، والسائق القديم مع جدى مدير الطيران ، وقص الحكاية بحذافيرها مع زيادات على زوجة قاسم الذى كان يومها خارج المدينة ، وقد مر ما يزيد على أربعين يوماً على غياب جدتى حتى تيقنت من هروبها مع أختها وأخت زوجها .

بعد يومين فقط من زيارة جواهر لزوجة قاسم ، يتناهى إلى مسامعى طرق شديد لباب دار البرهان الذى تركته مفتوحاً حتى أوصل طعام الحاج صالح الحارس وقهوته ، فأضع الطعام وأعود منفعلاً أنادى هذا الطارق ، وأرجىء تعنيفه حتى أراه ، لكننى أتراجع عن رغبتى تلك حين أرى رجلاً قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، على رأسه كوفية بيضاء ، وعلى أحد جنبيه شال بنى ، وله شارب كث أسود ، ولحية خفيفة ، وهو يمسك بقبضة يده مدقة الباب الحديدية وينتظر قدومى على صدى صوتى المنفعل المتلاحق ، حتى إذا ما رآنى هذا الرجل اقترب من رجل آخر ذى جوخ أسود ، وجنبية ذات مقبض وبندقية آلية ، وخلفه يقف رجلان ، ليقول له :

– هذا هو ابنهم .

ثم يقترب منى ويحنى قامته ليقول لى وهو يضغط على كلماته لتخرج من بين أسنانه :

– أين جدتك وخالتك ؟!

فأقول له :

– ماذا تريد منهما ؟!

يقول الرجل الآخر ذو الجوخ الأسود :

– أنا الذى أريدهما ، أريد الحديث مع إحداهما .

أتردد فى الكلام بعد اقتراب الرجلين المرافقين لهما ، فينهض الرجل القصير ويقول :

– هذا هو النقيب وليد سلطان ، شيخ بنى قاهر ، وأنا قاسم ..

يقاطعه الشيخ النقيب وليد سلطان ويقول :

– باختصار .. أمر من الدولة بإخلاء دار الأملاك هذه ما دمتم لا تحترمون الدولة ..

– وما دامت الجمهورية لا تعجبكم .

– وما دمتم لستم بحاجة إلى البيت .

– وما دمتم تهربون واحداً بعد الآخر،

– أين أم القاسم ؟!

– وأين جدتك أميمة ؟!

– وخالتك ضحى ؟!

– المهم عليكم إخلاء الدار لأنها ملك الدولة .

– نريدها الليلة قبل المغرب .

– وسلموا المفتاح بعد إخلائها للحارس.

– للحاج صالح.

– وسنأخذه منه عندما نعود .

يتناوب الرجال الأربعة الكلام وأنا أكاد أسقط من شدة الغيظ ، والخوف ، والترقب ، ولا أملك من تعقيب على كلامهم سوى هز رأسى ، ثم الدخول للدار ، والارتماء فى حضن أمى التى كانت واقفة على مقربة من باب الدار ، تتسمع الكلام بعدما أزعجها طرق الباب بعنف .

بعد قليل أتمالك نفسى ، ونبدأ ترتيب كيفية نقل متاعنا ، وأثاثنا القليل الذى تقاسمناه مع عمتى أسماء بعد إخراجنا من بيتنا جوار الإذاعة ، ومصادرته لصالح الخبراء الروس .

تجهز أمى بعض الأشياء الخفيفة - حتى لا تلفت الأنظار - لترسلها مع جواهر إلى بيت الشمس ، وترسل معها أختى التى لا تستوعب كثيراً مما يجرى .

تعود جواهر ومعها زهرة التى تطلب منها عمتى أسماء معاونتنا فى نقل الأشياء الثقيلة إلى بيت جارتنا العمة خديجة ، والأشياء الباقية إلى بيت الشمس.

تحمل جواهر وزهرة بعض الأشياء لكن لسان جواهر يفلت فى الطريق ، وتسمعها زهرة وهى تقول :

- لقد أخفت أم إبراهيم منى سفر أمها وعمتها وخالتها التى نهبت نقود عسبى، فعاقبها الله بفراق أهلها ، وإخراجها من بين الأملاك !! .

فتضع زهرة الأشياء التى تحملها ويتطاير الشرر من عينيها وتقول :

- إسمعى يا دلالة الهناء .. المؤمن مبتلى بما هو أكثر من هذا ، وهذه المرأة المسكينة يكفيها ما فيها ، وإذا كنت لا ترعين معروفاً والعيش والملح ، ولا ترقبين الله فيها ، فوالله ، والله لأرينك طريق الصواب كيف يكون !...

فتأسف جواهر لزلة لسانها ، وتحلف بأغلظ الأيمان أنها لا تقصد ما قالت ، وأنها لن تعود لمثله أبداً ، فلا تكتفى زهرة بأيمان .

جواهر وتقول لها:

– سنرى فى قابل الأيام، أما اليوم فلا!!...

***

تستقر أمى لتنام ليلتها الأولى فى بيت الشمس هى وأختى مع عمتى أسماء وجدتى بتول مع أن حجرة أم القاسم ليس فيها أحد، أما حجرة عمى عبدالوهاب فلا يجرؤ أحد على الحديث عنها وعن صاحبها الهارب وبناته الثلاث اللواتى غبن مع أمهن منذ أسبوع قبل انفجار الثورة، ويقال انهن الآن أيضاً فى الطائف، وربما فى بيروت، أما جواهر فتستقر فى غرفة الوسط مع زهرة وتبقى عمتى سمية زوجة عمى عبدالستار مع ابنتيها فى غرفتهن المجاورة لغرفة عمتى آمنة التى تستضيفنى فى أول ليلة لى فى بيت الشمس، لأنام مع ولديها محمود ومنصور، الذي يبدي تعاطفاً غير عادى معى، وجفاوة لم أعهدها منه من قبل.. وأسال نفسي:

– هل هذا تكفير عن ذنب؟! أم عاطفة عارضة؟! أم شعور بالمسئولية والواجب تجاه ابن عمه الأصغر بعد التجائه إليهم مطروداً للمرة الثانية من بيتهم؟! هذا منصور فى أول ليلة معه وإن كثر انتقاده لأخيه نديم الذى يغيب كثيراً فى ليالى اجازة هذا الصيف، حيث ينام فى السكن الداخلى مع رفاق المدرسة بعد تمارين ومباريات كرة القدم، لكن عمتى آمنة تنهى ابنها عن لوم أخيه لأنه الكبير وقد أصبح رجلاً وهو مسئول عن نفسه، وموضع احترام الجميع، ولا يشغل نفسه مثل غيره بالتفاهات!!.

ننام نحن الثلاثة تحت غطاء واحد، على الأرض دون فراش، ولولا الإرهاق والتعب الذي أشعر به، وما عانيت منه نهار اليوم لأصابنى الأرق لقسوة أرض الغرفة المفروش بفراش رقيق الحال لدرجة أنه لا يقى النائم وجع نتوءات أرضية الغرفة المتعرجة، فيغلبنى نوم عميق ربما قبل أن أتم تلاوة راتبى اليومى من المعوذتين وآية الكرسى، وبعض الأدعية التى حفظتها عن أمى وجدتى وخالتى ضحى.

بعد أدائها صلاة الفجر، تنادينا عمتى آمنة، وعندما أهم بالنهوض تمتد من تحت اللحاف يد منصور النائم بينى وبين محمود وسط الغرفة وتضغط على ذراعى حتى لا أنهض من الفراش فلا أنهض حتى دون أن أعلم السبب..

ربما ينتظر منصور شيئاً، حتى إذا ما خرجت أمه كعادتها إلى المطبخ لإعداد الخبز والإفطار مع جدتى بتول وزهرة مع جواهر، أحس بيده تمتد مرة أخرى بعد خروج أمه وتهز ذراعى وهو يقول:

– انهض الآن..

فأنهض لأسمعه يدعو أخاه للنهوض ثم يسحب دفاعنا نحوه كى يلفه حوله، ويغطي رأسه طالبا منا أن نسبقه إلى المسجد وسيلحق بنا، فأسير مع محمود الذى يدخل من الباب الخلفى للمسجد، فأدخل خلفه إلى محل الطهور، ومصفى الجامع.

أسأل محمود «ابن عمى حسن» وهو يخلع حذاءه وينحنى قرب الماء:

– لماذا لا ندخل بنية المسجد؟!

فيجيب وهو يغسل وجهه:

– إنها مغلقة.. لقد تأخرنا.

– وسوح الجامع..

– عيب أن يرانا أحد نصلى الفجر قبل شروق الشمس

– أليس أفضل من عدم الصلاة!!

– من قال لك إننا لن نصلى؟!!

– كيف؟!

– سنصلى فى البيت.

– متى؟!

– بعد عودتنا.

– أين؟! سيعرفون بأمرنا؟!

– لا تسأل عن سوق أنت واصل إليه..

فأخلع حذائى، وأبدأ بغسل وجهى مثل ما يفعل محمود على دخول منصور الذي يقول لأخيه الذى يستعد للخروج:

- ألن تصلى يا بطل؟!

فيرد عليه بنزق:

- قد صلينا ولا دخل لك!!

فيضحك منصور ساخراً من رد أخيه ثم يدفعنى حال لبس الحذاء ويقول:

- خذ هذا البطل معك

فأركض خلف محمود، وأبدى له دهشتى من رده على أخيه، وخشيتى أن يشى بنا منصور فيقول:

- ألم تلاحظ أنه يثنى ثوبه وهو يكلمنا!!

- لماذا؟!

- وسترى عند عودتنا أنه قد فتح النافذة ومد الفراش والغطاء تحت الشمس لتجف!!

- لماذا؟!

- لقد بال منصور على الفراش، وقد طلب منى...

- ألاّ تنهض قبل خروج أمك.

- وما أدراك؟!

- طلب منى مثلما طلب منك!

- لذلك لا تخشاه، لن يقول شيئاً إنه يخشانا الآن أكثر مما نخشاه

- والصلاة؟!

- قلت لك سنصلى!

وحين نبلغ بيت الشمس يتجه محمود نحو غرفة زهرة التى هى غرفة الوسط والأكل أيضاً، ليتأكد أن لا أحد فى الغرفة، ويطلب منى الانتظار حتى يتوضأ

خلسة فى الحمام المجاور للمطبخ، ويطلب منى أن أتبعه بعد أن ينتهى، فأتبعه وننهى صلاتنا القلقة على سجادة قديمة مخبأة خلف إحدى الوسائد وننتظر بعد حضور منصور حتى يأتينا أحد بإفطارنا.

تدخل زهرة حاملة وعاء الطعام على موقد جدتنا بتول، وتتبعها عمتى آمنة حاملة الخبز وإبريق القهوة، وتقول لمنصور وهى تضع على المائدة ما فى يدها:

– ما الذى عملته فى ثوبك يا منصور فيبهت منصور وينظر نحونا بانفعال وهو يقول لأمه:

– ماذا عملت؟!

– هذا الذي خلف ياقة ثوبك!!

– ماذا خلفها!!

– قطعة لبان.. ألن تقلع عن عاداتك السيئة؟!

– ليس معى ما أشترى به لبان كل يوم.

– أنظر إلى أسنانك كيف ينخرها لبان النصارى.

– لكنه يعجبنى.

– أفعل مثل محمود يا ولدى، إن كان معه لبان، يمضغه ثم يرميه لكنه لا يحتفظ بها فى ياقة ثوبه لليوم التالى لأتعب في تنظيفها ويجعل النساء تسخر منى ومنه...

– من يسخر يسخر من نفسه.

– تعلم النظافة يا ولدى.

– تكفينا نظافة محمود ونديم.

– لا تذكر الغائبين!!

ونتناول فطورنا على برطمة ورطين منصور حتى نسمع طرقاً على باب البيت فيقول منصور:

- انهض يا نظيف لتفتح الباب.

فلا ينهض أحد منا، ونسمع جواهر تحاور رجلاً يتعرف منصور ومحمود على صوته، فيقفز منصور مسرعاً لملاقاة الرجل الذي يسأل عن أخته أسماء؟.

- هذا الانتهازي منصور، لو قام من البداية لكان أكرم له.

- ....

- هل تعرف من القادم؟

- لا؟!

- إنه حبيب، أخو عمتي أسماء من الرضاع.

- وماذا يريد؟!

- يا سلام!! زيارة أخته اسماء.. عمتك، وجدتك.. أمه بتول.

- في مثل هذا الوقت المبكر!!

- وماذا في ذلك؟!

- .....

- لاشك أنه عائد من عدن، إنه تأخر ومنصور يطمع في أن يعطيه شيئاً مما يجعل لعمتي أسماء..

- وماذا يعطيها؟!

- لا أدري، يقولون إن معها مرتب من الملكيين

- لماذا؟!

- أليست خالة الإمام!!؟

يقطع حديثنا بخول منصور بخفي حنين بعد أن نهرته عمتي، لكنه يخبرنا بأن عمنا حبيب الواعي قد وعده بأن يعطي الفائز في مباراة كرة قدم سداسية يقيمها في ساحة بيت الشمس زجاجة كوكا كولا أحضرها معه من عدن، على أن تقام المباراة قبل ظهر اليوم.

***

على باب الحوش نحو الشارع نجلس نحن الثلاثة منصور ومحمود وأنا تتلقى أجسادنا، وأصابع أكفنا الممدودة دفء شمس صيف لا تلبث أن تشتد لتلسع جلودنا، فننهض للجلوس فى الجهة المقابلة على دكة باب قهوة سمير وقد انضم إلينا صلاح ابن جارنا الشيخ جمال بهلول، وأخوه الأقرب منى سناً، حتى بلغ عددنا تسعة دون أن نحدد مكان اللعب أو أن هناك جائزة وإلا امتلأ حوش بيت الشمس الصغير بالصبية والفتيان لمشاهدة المباراة وزجاجة الكوكا كولا القادمة من عدن مع عمنا حبيب، لكن ضرورة الحصول على كرة القدم البلاستيك من سمير صاحب القهوة يجعل حديثنا مفتوحاً، ويدفعنا لنقاش مسألة البحث عن سمير لأنه قد يتأخر عن موعد حضور عمنا حبيب، وسمير غالباً ما يفتح قهوته قبل الظهر بقليل، يهمس منصور لمحمود مبدياً قلقه من احتمال رفض سمير إعارتنا الكرة إلا مقابل إيجار ندفعه كما يفعل زبائنه الآخرون مقابل لعبهم أوراق الكوتشينة أو الدومينو، أو على الأقل -يتوقع منصور- أن سمير لن يعطينا كرته البلاستيكية لنلعب بها إلا مقابل شرب كل واحد منا نصف كوب من الشاى يدفع ثمنها أحد الفريقين، ولنفترض أن يشرب الفريق الغالب ستة أنصاف على حساب الفريق المغلوب فمعنى ذلك أننا سنحتاج إلي ثلاث بقش كاملة، نصف بقشة لكل نصف كوب، وكلنا لا يملك هذا المبلغ، ولا حتى بعضه.

كل واحد من الحاضرين -إذن- يفكر فى كيفية تدبير المبلغ أو بعضه على سبيل المساهمة فى حل المسألة، لكن شبه المستحيل تدبير المبلغ كله جملة واحدة.

ويحضر سمير، فنتفرق قليلاً من دكة الباب ليفتح الرجل قهوته، ولا يجرؤ أحد على مفاتحته بشأن الكرة التي لن تقوم المباراة إلا بها، وتتزايد أشواقى لتذوق «الكولا كوكو» كما سماها القاسم ذات يوم بعد أن سمع عنها، وحين تنبت فى رأسى فكرة المساعدة فى تدبير المبلغ من أمى لقاء استمرار سكوتى عن حقى في

نصف حبة الذهب التاريخية التى أودعتها الديها، وكانت قد أعطتنيها خالتى ضحى قبل هربها، أفاتح محمود بهواجسى فى عدم الحصول على أى مقابل إذا صادف وكنت ضمن فتيان الفريق المهزوم، فلا يتردد محمود فى طرح مخاوفى على منصور والآخرين بشكل يفترض فيه أن أحدنا ساهم فى دفع قيمة ستة أنصاف من أكواب الشاى مقابل إعارتنا الكرة، لكن فريق هذا الذى انهزم، فما الذى سيحصل عليه لقاء مساهمته وهو لن يشرب نصف كوب من الشاى، ولن يرشف رشفة من زجاجة «الكولا كوكو» لأنه لم يكن بين المنتصرين!؟!؟

أقول معقباً:

– فى هذه الحال فإن هذا الواحد قد ساهم نقداً لكننا حرمناه من الشاى والكولا.

ويستمر حوارنا المقصود على باب قهوة سمير وهو متغافل عنا وعن حوارنا بكنس المحل ومسح الطاولة الخشبية المغشاة ببلاستيك متهريء قديم ذهب لونه، وثبت اتساخه، فلا شئ عند سمير مجانا بدون مقابل، وإلا لكان قد أقفل دكانه منذ سنين.

حتى منصور الأقرب من سمير لا يقدم على مفاتحته فى الموضوع ولو على سبيل أن يعتبر ايجار استخدامنا للكرة سلفة عنده، فالسلف –عند سمير– ممنوع والزعل مرفوع، كما فى يافطة كادت تمحى، وضعها سمير خلفه، قدام محل جلوسه ودكة عمل الشاى،، وكتبها منصور بخط يده، يبقى حديثنا دائرا فى كل اتجاه، وتبدأ حاسة وحواس منصور تتجه نحوى للإيحاء لى بتدبير المبلغ لإحساسه أن الافتراض بدأ من جوارى، تلاه افتراضات أخرى كثيرة توحى بإمكانياتى تدبير المبلغ المطلوب.

يبدأ منصور اغرائى بالتلميح أن قرعة قسمة الحاضرين إلى فريقين يمكنها أن تجعلنى حارس مرمى فريقه، وعادة ما يكون الصغار هم حراس المرمى، ثم إن

النتيجة مضمونة لصالح فريق منصور كنتيجة لمغالطاته، وعنفه في اللعب وعدم جرأة أحد على مقاومة حدة لسانه وتسلطه، وأحكامه الجائرة، ولذلك فالفوز مضمون لفريقنا، وكلنا يعرف ذلك، وإن لم يصرح به...

لكن محمود الذى يدرك معنى تلميحات منصور ومناورته وما يرمى إليه، يسألنى أولاً عن مدى ثقتى من نفسى فى تدبير الثلاث البقش، وعندما يترجح عنده الإمكان حتي دون معرفة التفاصيل، يطرح رأياً يرى فيه أننى إذا دبرت المبلغ يجب أن يشرب الجميع الستة أنصاف من أكواب الشاى، يعنى ربع كوب لكل لاعب، سواء كان مع المنتصرين أو مع المهزومين، ويكفى المنتصر أن يشرب زجاجة الكولا لوحدة، ولو رشفة لكل لاعب من الفريق السداسى المنتصر، ولولا اعتراض منصور لكانت الموافقة على فكرة محمود بالاجماع.

لذلك يقوم صلاح ابن القاضى جمال بطرح فكرة بديلة تتلخص فى أن يتوزع أفراد الفريق المنتصر زجاجة «الكوكا كولا»، ويكون للفريق الآخر ستة أنصاف أكواب الشاى، لأننا إخوة فلا غالب ولا مغلوب، فأطير البيت على تهليل الجميع بالموافقة على رأى صاحبنا وجارنا صلاح جمال بهلول.

***

تسمع جواهر طرفاً من نقاشى الحاد الهامس مع أمى للحصول على ثلاث بقش، فتعاتبنى لأنى لو كنت قد أخبرتها بالمشكلة قبل اتفاقنا المزعوم مع ابن اختها سمير لكانت جواهر قد أقنعته بأن يعيرنا كرته البلاستيك دون مقابل، وهي بهذا كأنما تريد أن تتقرب من أمى، وتستعيد ثقتها بعد ما فعلت معنا، ولكن أمى تتجاهل كلام جواهر وتوافق شبه مرغمة على إعطائى ثلاث بقش على أنه قرضة حسنة منها حتى يعطينى الله ولو من نقود عسب العيد الذى لم يزل بعيداً..

أعود وأسلم منصور المبلغ كونه الزعيم، والكبير بيننا، ولأنه صديق سمير، فيدخل منصور، ونحن جميعاً من خلفه لاستلام الكرة.

يقول منصور لسمير الذى كأنه لم يسمع، ولا يعرف شيئاً:

– نريدك يا سمير أن تعيرنا الكرة، وسنشرب عندك ستة أنصاف أكواب الشاى.

يقاطعه سمير:

– ومن يضمن لى؟!

– أنا أضمن لك، والمبلغ فى جيبى!!

– أقول لك من يضمن لى عودة الكرة سليمة دون اصابتها بمسمار فأنتم أجلاف وقطعة حديد يمكن أن تقسمها نصفين.

– قلت لك أنا ضامن!!

– يبدو أنك تنسى!!

– أنسى ماذا!؟!

– أنت إلى الآن لم تسدد ما عليك..

– ...

– قيمة ثلاث حبات سجاير ونصفين كوب شاى لها عندك أكثر من شهر ونص.

ويصر سمير على موقفه، ولا يقبل ضمانة منصور، وننسحب لنتشاور خارج القهوة.

أستعيد كلمات جواهر عن إمكانيتها المساعدة فأخبر محمود –أثناء اللغط والدوشة– أننى سأحاول مع «أمى جواهر» خالة سمير التى كثيراً ما قال لى محمود إنها قهوة ابن خالتى لمجرد أنى لا أناديها «إلا «أمى جواهر» مهما بدا منها وينتظر الجميع عودتى مع جواهر من داخل بيت الشمس فلا أعود إلا معها.

تطلب منى ومن الآخرين الدخول إلى ساحة البيت والانتظار فى الحوش، حتى تقنع سمير «ابن اختها» بضمانتها لسلامة كرته، أو الالتزام بشراء كرة أخرى مثلها إذا حدث لها شئ.

وتعود جواهر بالكرة، وتطلب البقش الثلاث قيمة الشاى» قبل أن تسلم منصور الكرة، ونبدأ التدريب داخل الحوش، حتى يوقفنا منصور عن اللعب، ليتم توزيعنا فى فريقين، لكن عددنا أقل بلاعب واحد، لذلك يقبل محمود أن يختار منصور أولاً أربعة لاعبين ليكون فريق منصور مكونا من خمسة لاعبين فقط أنا واحد منهم، مقابل خمسة لاعبين مع محمود هو سادسهم.

نقوم بتجهيز هدفين فى طرف الساحة الترابية الصغيرة بوضع حجرين كعلامة لكل هدف ويقوم منصور بقياس المسافة المتساوية بين كل حجرين لكل هدف، ويعيد محمود القياس معترضاً على أن منصور قد جعل المسافة أوسع بين حجرى هدفهم، وأصغر فى هدفنا، وهكذا حتى يحضر عمنا حبيب، حاملاً كيس زجاجة الكولا فى يمينه، يتبعه مرافقان، أحدهما يحمل كرسياً لجلوس العم الأنيق حبيب، ذى السكسوكة الصغيرة، والشارب المقصوص بعناية، والثوب الناصع البياض وعليها صديرية صوف من الصوف المصنوع من سترته البنية شديدة الأناقة، وعلى رقبته يلتف شال كشمير أخضر صغير، وبعد أن يجلس على الكرسى طلب صندوقاً صغيراً ليضع عليه زجاجة الكولا، فلا نجد إلا صفيحة أكلها الصدأ، فيضعها أمامه ويطلب أن نغطيها بورق أو مشمع بلاستيك، ثم يدعونا بكلمات منتقاه، وابتسامة مهذبة إلى بدء المباراة، ولكن تنشأ مشكلة بين من سيحكم المباراة بعد أن أغلقنا باب الساحة واكتمل اعداد كل شئ؟!

مرافقا عمنا حبيب يبديان جهلا تاماً بأحكام كرة القدم، نحن حتى أقل من العدد السداسى المطلوب لكل فريق، ولو حكمنا أحداً فسيكون منصور لا مناص، ولن يجرؤ أحد على كشف مغالطاته، أو الاعتراض على قراراته، وإلا حصلت مشاكل، وتبدد الأمل فى مباراة نظيفة، وحكم عادل، وبينما نحن نتشاور ونتجادل، نسمع طرقاً باب الساحة المغلق، فيقفز محمود فرحاً عند سماعه صوت نديم يطلب فتح الباب له ولصاحبيه.

يعيد نديم تقسيم اللاعبين بعد أن يضيف أحد صاحبيه إلى اللاعبين، ويحكم هو المباراة بناءً على طلب الجميع، ويشتد التنافس بين لاعبى الفريقين، أحدهما يقوده منصور الذى بقيت أنا فى فريقه، والآخر يقوده محمود الذي يتحقق له الفوز فى الشوطين بعد أن يعلو الغبار ويغطى كل شئ بما فى ذلك كوفية عمنا حبيب، وحاجبيه، ورموش عينيه، وياقة ثوبه الأنيق، لكنه يبتسم وهو يقف ليسلم الفريق الفائز زجاجة الكولا، لكن المفاجأة أن عمنا حبيب يستخرج كم كيسه زجاجة ثانية يسلمها لمنصور لتكون للفريق وزجاجة ثالثة يتوزعها الحكم ومرافقا عمنا حبيب الذى لم تفارقه الابتسامة حتى وهو ينفض الغبار عن كوفيته وشاله وسترته بعد أن غطاها الغبار الذى أثرناه فى كل اتجاه، بشدة اللعب، وحدة التنافس الذى تخف حدته بتذوق الجميع رشفات متباينة العدد من زجاجات الكولا التى استعادها عمنا حبيب بعد فراغ آخر قطرة من كل واحدة منها في جوف خمسة عشر لاعباً وحكماً ومشجعاً.

***

نعود من المسجد بعد صلاة الظهر وقد نفضنا عن أجسادنا أكثر ما علق بثيابنا وشعرنا وسيقاننا من غبار المباراة، وتراب ساحة بيت الشمس التى نحسبها ميداناً فسيحاً، مع أنها تضيق بأفراد مباراة سداسية، غير أنها -فى أعيننا- أوسع من ميدان العلفى، وأرحب من ملعب مدرسة سيف.

وفى المطبخ نتزاحم مع جدتى بتول الواقفة على تنورها، وعمتى أسماء والنساء الأخريات، فنديم يحمل طعام أبى إلى سجن القلعة، ومحمود وأنا نحمل طعام عمى عبدالستار إلى سجن الرادع، ويتخلف منصور عمداً، لكننا لا نحتاجه كثيراً هذه الأيام إلا فى يوم الجمعة حيث أذهب مع نديم لزيارة أبى فى سجن القلعة، ويرافق منصور أخاه محمود لحمل طعام عمى عبدالستار بدلاً عني.

لا أعرف -حتى الآن- إن كان خبر غياب جدتى أميمة مع خالتى ضحى وعمة

أمى نجية قد بلغ أبى أم لا، وأتوقع أن يحمل لنا نديم خبراً عن ذلك بعد عودته، مع أن عمتى أسماء تشدد عليه فى عدم إبلاغ أبى بأى شئ إلا إذا بدأ هو بالكلام، تأكد لنديم أن الخبر قد بلغه فى سجنه.

عادة ما تكون رحلتى مع محمود إلي الرادع أبطأ من رحلة نديم إلى سجن القلعة مع أنه أبعد بكثير عن الرادع،، والسبب أن محمود وأنا نقضى معظم الطريق فى قيل وقال، وتبادل الحديث عن الكرة والمدرسة والبيت وأحلام لاحصر لها ولا حدود، لكننا هذه المرة نحس فى طريق عودتنا أن نديم قد عاد أسرع من كل يوم، حيث نلاقيه عند مفترق طريق المدرسة مع ميدان التحرير وهو يحمل السفرطاس مع كيس الخبز الذي ذهب بهما.

يسأل محمود:

– ما الخبر؟!

– يبدو أنهم يحققون مع عمى؛ فقد منعونى من زيارته وتسليمه الطعام مثل كل يوم..

– فيم يحققون؟!

– هل نسيت هروب جدة إبراهيم وخالته!!

– إنهم فى القرية عند أقاربهم

– مثلما قالوا إن القاسم وأمه في خضير وما انتبهنا إلا على أخبارهم فى نجران ثم الطائف!!

***

يصيب أمى اكتئاب لمنع زيارة وتصيبنى حيرة بالغة، ولا ينقطع أمل جدتى بتول، وعمتى أسماء فى توصيل طعام أبى، حيث يستمر إعداد ذلك الطعام وإرساله مع نديم إلى سجن القلعة، ومنح نديم المزيد من المراضاة والنقود، من عمتى.. لكن الأيام تمر حتى يبلغ أسبوعاً، فعشرة أيام، ثم نصف شهر والحال هو

الحال لم يتغير، ولا سبيل لأي أحد منا في مراجعة مسئولين نحن أبعد ما يكون عن الاتصال بهم، أو الوصول إلى أبواب مكاتبهم المحروسة، وبيوتهم المحصنة، عساهم يأمرون بالتخفيف عن أبي وزيارته حتى دون طعام.. ويدفع عمتي شعور عارم بالتعاطف مع أمي لتمنحنا غرفة من غرفتي حجرة أم القاسم المغلقة منذ اختفائها مع ابنها، خصوصاً بعد أن تعلم عمتي بحمل أمي منذ الخروج الأخير لأبي، وبقائه معنا لمدة يومين في دار البرهان.

***

حتى الآن نحن لا نعرف شيئاً من أخبار أبي، وهل لا يزال في سجن القلعة أم لا، لكن الاستمرار في إرسال الطعام يبدو أنه يمثل دفعاً لشبح القتل. وأوهامه.. لكن الخوف يبلغ مداه بعد مرور ما يقارب شهور أربعة وإن كان قلقي وخوفي يتناقص بسبب انقضاء الإجازة، وبدء أيام الدراسة، وتأمل حال بطن أمي الذي يكبر يوماً بعد يوم، وإن كان ذلك أهون عندي من مشكلة كل ليلة، فهذه مشكلة ليلية تقلب كياني كل مساء عند عودتي بعد صلاة العشاء إلى بيت الشمس واجتياز نقطة «حر السود» بعد بوابة دهليز الحجرة السفلى، هذه المشكلة المزمنة التي تفتت كبدي كل ليلة لا تبقي لي قلباً يفكر في حال ومصير الأب السجين وأم حامل، وسواءً عدت من المسجد وحدي أم برفقة أولاد عمي فالفجيعة لابد منها كل مساء.

***

أسطورة «حر السود» هذا تزداد غموضاً وارعاباً لنا كلما عدنا بعد صلاة العشاء..

يقال إن اسم «حر السود» مكون من اسم «الحر» الذي هو اسم ولد الحية التي تسكن الحر، ويقال: بل اسم «فرخ حمام الجن» ويدعى البعض أنه آت من كلمة «الحرحر» التي تقال لزجر البعير الأجرب.

وإذن فـأنت لاتدرى أهذا المخـزن المظلم النـازل بسلم أعـرج، من صـخـر أسـود غير منضـد، وجدار كـأول خلق: هل فيه حيـة رقطـاء مع ولدهـا، أم حمـامـة جن مع فراخـها فى ثقبهم العنكبوتـى الأرمد، أم أن المخزن رغم ضيقه واسـتحـالة الوصـول إليه كان عند بناء البيت مناخ بعير أجرب عزلوه عن كل شئ حتـى لا يصاب غيره بعدواه، فمات وأنتن، وبقيت عظامة منثورة على تراب قاع المخزن، أو مدسوسة بين أجولة الفحم وقطع الحطب وثلاثة حجارة صلدة ملساء.

وأمـا كلمـة «السـود» بفـتح السـين، وسكون الواو فـهـو اسم لكل فـاحم أسـود من عظام بعير، أو فحيح أفـعى لها جرس يصـم الآذان، أو لبيضـة حمـام الجن الزاجل، وقد يبستها السنون، وفحمها السكون.

«حر السـود» هـذا يقـع فى كـوة على يمين الداخل من باب دهليز الحجرة السفلى جـوار منسـمـة أول سلم للصـعـود فى بيت الشـمس وهـو مـخـزن لا يعلم مـا فـيـه ومن فـيه من الإنس أو الجن سـوى أختنا زهرة، ولذلك نتدافع قفزاً قدام كوته إن عدنا فى ليلة كجماعة، وإن دخلت فرداً تيبست أنفاسك فى ثلج ظلامه، وشدة بابه الذى لا ينفتح لغير اختنـا زهرة إلا كفم بعير يدفع لجـاج زبده لينزلق الداخل إلى أسـفل دبره.

وعندمـا يفـاجئنا نديم بدخوله غير المرتقب وقت صـلاة العشـاء ليخبرنا أن عمى عبدالحـميد فى انتظارنـا داخل غرفـة عمـتى آمنة، لا نعرف عـدد ركـعـات الصـلوات التى نؤديهـا شـوقـا لرؤية هذا الحـاضـر الغـائب، والجلوس مـعـه، وفى طريق العـودة نركض مـتدافـعين فى حوش بيت الشـمس، ونتـزاحم عند بابـه القبلى خـوف أن من يتـأخـر سيكون عليه إغلاق باب دهليـز الحـجـرة السـفلى ومـعـانـاة عـبـور نقـطة «حـر السـود» الحبلى بالفـزع والرعب، من فـحيح الحـيـة، أو رغـوة البعـيـر، أو الدوس على بيضة حمام البور من زمرة العفاريت.

نلج غرفة عمـتى آمنة – فى الحجـرة التى تسكنها مع زوجـة عمى عبدالسـتار–

واحدا تلو الآخر، متصنعين السكينة والهدوء بعد أن فضحتنا خطواتنا المتلاحقة على السلم الملتوى من دهليز «حر السود» حتى باب هذه الحجرة، وعمنا عبدالحميد يستند فى غرفة أم نديم إلى وسادة خلف ظهره، وابتسامته العسكرية الغامضة تزيده رهبة فى نفوسنا، ومسدسه الموضوع بجوار يمينه يمنحه فى أعيننا صفته الرسمية، وأزرار قميصه الكاكى المفتوحة على أعلى صدره توحى بتعبه، وشبابه وبساطته، لكننا نتهيبه، ولا نجرؤ على فتح باب حديث معه حتى يبدأنا هو.

يتأمل وجوهنا المصفرة لفزعها الأول، ثم المحمرة قليلاً من خجل أنفاسنا المتقطعة التى نحاول حبسها حتى تهدأ، وحتى لا يظهر عليها أثر فجيعة «حر السود» وبقايا خواطر وصور المرور بجواره فى ظلمات هذا الليل البهيم.

***

تدخل أختنا زهرة علينا حاملة موقدها الساخن بأذنيه النحاسيتين، وعليه وعاء الفخار الصعدى الفاحم يفور بحلبة ممروقة، تظهر من وسطها حبات بطاطا مطبوخة، تتبعها جدتى بتول بغطاء الخبز لتضعه بين يدى ربيبها عمى عبدالحميد وتتلقف دمعتها المنسكبة بطرف لثامها المتدلى على جنبها التعبان وتقول لعمى:

- ألن تفعل شيئاً من أجل أخيك الكبير محمد؟! لقد منعوا أولادنا عن زيارته، واعطائه طعاماً مثل غيره؟!!

ولما لم يجبها عمى نهضت دون أن تزيد حرفاً واحداً على ما قالت، غير أن دموعها انهمرت فى صمت حتى خرجت بعد أن التقطت حذاءها بيسارها.

***

على مائدة العشاء يبدأ عمى الحديث مع نديم عن المدرسة، وفريق كرة القدم، حتى انتبهنا على صوت عمتى آمنة من خلف باب الغرفة تطلب من محمود أن يأتيها بأوعية الطعام الفارغة إن كنا قد انتهينا من تناول الطعام، فيقوم محمود

ونديم بحمل الأوعية، ونسمع صوت عمتى آمنة تقول:

– مساء الخير يا أخى عبدالحميد

– مساء النور يا أم نديم.. أكرمكم الله على العشاء

فترد عمتى آمنة:

– لن يكرمنا الله إلا بخروج أخيك من السجن

فيقول عمى مازحاً:

– أى أخوتى تقصدين فهم كثر!؟

فتجيبه:

– الاثنان، محمد وعبدالستار

يرد عليها:

– هكذا مرة واحدة؟! يا أم نديم: القلعة أو الرادع أفضل لإخوتى، خصوصاً محمد، لأنه لو خرج بأمر أصحابنا فسيسجنه المصريون فى القيادة العربية، وهناك لا أراك الله، عذاب بالكهرباء التى لم تصل إلى بيتكم حتى الآن، ونهش بكلاب البشر والحيوان...

– على الأقل لو يسمحوا للعيال بزيارة عمهم محمد، ويوافقون أن يتسلم طعامه الذى نرسله كل يوم، وتعود أوعيته كما ذهبت، ولا يذوقه أحد هنا لأنه طعام محمد... هل يرضيك مثل هذا الذى نعانيه كل يوم منذ أكثر من مائة يوم، وهل يرضيك هذا المسكين ابن محمد الجالس بينكم أن لا يرى أباه، ولايراه أبوه كل هذه المدة، وزوجته مريضة وحامل قد اقترب شهرها؟!

يرد عمى:

– لاتقلقى ياأم نديم فإن سجن اليمنيين ليس فيه تعذيب، فإما أن أخى حى يرزق وإما..

– نعوذ بالله..

- إنهم قد أعدموه، ولو فعلوها لكنت قد علمت..

فتصيح عمتى آمنة:

- فال الله ولافالك.. ياعيباه من هذا الكلام، فينظر نحوى ويقول:

- لاتخافى فلن يقتلوا أخى محمد أو عبدالستار، لأنهم يعرفون أنهم إخوتى، لكن إطلاقهم من الحبس، وأنا بعيد وغير مستقر، غير مضمون، وإذا أردتم فسأفعل ولكن على مسئوليتكم..

فتقول عمتى آمنة:

- على الأقل نعرف الآن ماعندهم..

يرد عليها:

- إن شاء الله لن يحصل إلا الخير.

وتمضى العمة آمنة أم نديم لحالها، ويتنهد عمى عبدالحميد ويقول:

- لم يسألنى أحد، مجرد سؤال عن زوجتى وولدى!!

ولما لم يعقب أحد من الحاضرين الأربعة على قوله، يحاول عمنا أن يغير الموضوع ويقول:

- حتى أنت يامنصور؟!

فيرد منصور:

- أنا؟! ماذا؟!

وأنا ألمح على شفتى عمى - رغم ما جرى - ابتسامة أبى، وإن كانت من عمى أكثر غموضا وحزنا، وحتى موقفه - فى هذه اللحظة مع منصور - أراه يشبه كثيرا موقف أبى لو كان حاضرا.. كلاهما يبتدىء الحديث باستفزاز منصور لجرأته، وعدم إخفائه أى شىء مهما كان، عندما يستفزه أحد ولو كان أحد أعمامه.

يلتفت عمى ناحية نديم ويقول:

– أعرف أن منصور، سينكر أنه أكثركم خوفا ورعبا من (حر السود)؟

فيتغير وجه منصور ويقول:

– لو كان اسمى إبراهيم واسم أبى محمد، لكنت – فعلا – أكثرهم خوفا.

فيضع عمى يده على مسدسه ويرفعه، ثم يستخرج من جوفه حبات الرصاص، ليضعها مع المسدس على أرض الغرفة ويقول:

– اشهد يانديم، واشهدوا جميعا.. أن هذا المسدس هدية.. تبرع.. جائزة.. سموه ماشئتم.. المهم هو لمنصور إن نزل الآن إلى (حر السود) وأتانى بأمارة معتبرة دون أن يصرخ، أو يظهر عليه الخوف..

عندما يتردد منصور، ويحس بالتحدى يلمع فى عيون أخيه نديم، يحاول أن يظهر شجاعة استثنائية، حتى ولو كان ثمنها غاليا، مثل ضياع سمعته التى يحرص عليها، وأنه لايتردد فى مواجهة أى تحد من أى أحد كان.

ينهض منصور، ويسير متظاهرا بشجاعة غير معتادة، ونحن جميعا نشيعه بنظرات الشفقة والترقب وحبس الأنفاس.. انفعالنا صامت، وابتسامة عمى تكاد تقفز من بين شفتيه ضحكة مدوية.

لا أحد من الموجودين يسمع خطوات منصور بعد خروجه من الغرفة لأنه يفضل المشى حافيا، حتى عندما يلعب كرة القدم، فهو يكتفى برباط ضاغط على مشط وأسفل ساق قدمه اليسرى، ويلعب حتى تدمى أظافر إحدى قدميه.

يقف منصور أمام ضوء فانوس ضعيف موضوع خارج ديمة المطبخ مستأنسا بهمس ثلاث نساء فى الداخل هن أمه وجدته وأختنا زهرة، ويسترد أنفاسه، أو يلتقطها وفجأة يظهر ظل امرأة خارجة من المطبخ، فإذا هو وجها لوجه أمام اختنا زهرة التى تفاجئه فى صمته، وتوجسه، ولايراها بعد أن أظلمت عيناه، إلا أنه يسمع صوتها كأنه آت من ركن بعيد وهى تقول:

- ماذا تفعل هنا يامنصور؟!

فيرد عليها وقد تيبست شفتاه:

- جئت أشرب من المطبخ.

فترد عليه وهى تحمل الفانوس وتمضى للأسفل نحو (حر السود).

- إن ماء المطبخ أدفأ من ماء غرفتكم.

ومنصور يعرف هذا، لكنه يحاول كسب الوقت وتدبير ما يمكن تدبيره من (حر السود) كأمارة يعود بها،. فيلحق قليلا بزهرة ويسألها من طرف درجات السلم أن تحضر له شيئا من (حر السود) فتتجاهل طلبه لأنه لا وقت عندها، وتضيف إن هو أراد شيئا فليأت لأخذه بنفسه، فلا يجرؤ المسكين ويكتفى من الغنيمة بالإياب.

يعود منصور إلينا ويتنحنح حال دخوله ليبدو أنه متمالك لأعصابه فيسأله عمى عبدالحميد:

- هل دخلت (حر السود)؟

فيهز منصور رأسه بالايجاب، فيعود عمنا ليسأله:

- إن كنت صادقا، فأين الأمارة التى تؤكد نزولك (الحر)؟!

فيرد عليه منصور وهو يهم بالجلوس:

- أكبر أمارة أن أختى زهرة فى (حر السود) الآن..

يقول عمنا عبدالحميد:

- اذهب معه يانديم، أنا مازلت عند وعدى، ولكن على منصور أن يأتينا بأمارة معتبرة من قاع المخزن. هناك وسادة الحطاب التى يضع عليها جذوع الأشجار ليقطها بفأسه.. على منصور أن يأتى بالوسادة فهى خفيفة. هيا انهض يانديم مع منصور على ألا تنزل معه لأسفل المخزن، يجب أن ينزل دون مرافق، ولابأس من وجود اختكم زهرة هناك.

يمضى منصور، ويتلكأ نديم فى لبس حذائه حتى يتلقى اشارة عمى عبدالحميد الذى يغمز بعينه، فيفهم نديم المراد، ويتبع منصور حتى أوسط السلم المواجه لدهليز الحجرة السفلى.

باب (الحر السود) لايزال نصف مفتوح، فيدفعه منصور قليلا ليرى خيال ضوء فانوس ضعيف ينبعث على درجات سرداب يراه طويلا طويلا، فيهبط نديم درجة أخرى ويقول:

- هيا اهبط يابطل، سأنتظرك هناك.

يرد منصور والخوف يزيغ ببصره ذات اليمين وذات الشمال:

- سترى كيف أحصل على مسدس عمك.. هذا إذا صدق..

ويبدأ فى نزول درجات سرداب (حر السود) متحسسا طريقه بأصابع يده المرتعشة، وينادى زهرة بصوت متقطع لاصطكاك أسنانه، فينبعث صوت زهرة المنشغلة بجميع أعواد الحطب المنفلق لوقيد تنور جدتنا بتول:

- أما ارتويت يامنصور حتى تغامر بالمجىء إلى هنا دون رفيق أو سراج..

فتتضاعف ظلمة المخزن، وترتعش الشعلة الغريقة فى فانوس زهرة، ويهمس منصور:

- أين وسادة الحطاب يازهرة؟

فترد وهى تغترف قليلا من جوالة الفحم:

- وماذا تريد بالوسادة فى مثل هذا الوقت.

يرد عليها وقد اقترب من قاع المخزن:

- ناولينى الوسادة فقط، وستعرفين لاحقا ما الذى أريد بها.

فى هذا الوقت يدبر نديم أمره بليل، وزهرة تلتقط وسادة الحطاب وتسلمها لمنصور وهى تؤنبه وتقول بأنه ليس منه إلا المشاكل، وسيثير بفعله غير المبرر هذا غضب أمها بتول، فيؤكد لها منصور ألا أحد سيغضب لأن عمى

عبدالحميد يرصد جائزة لمن يأتيه بالوسادة كأمارة على دخوله (حر السود) فتخفى زهرة ملامح عجبها خلف لثامها المسترخى على أرنبة أنفها، بينما يصعد منصور حاضنا بيديه - على صدره - وسادة الحطب وهو لا يكاد يرى ما تحت قدميه حتى يخامره الاحساس بعدم ثبات أرض السلم تحت قدميه، وتعود الظلمة لتغطى عينيه، والصمت يطن فى أذنيه طنين ذبابة القبور، ورغم تعاظم شعوره بالرعب فإنه يصعد السلم بعد منسمة (حر السود) خطوة خطوة، وهو يعد درجات السلم الصاعد للمطبخ الذى غادرته أمه وجدته:

- واحدة.. اثنتان، وهذه الثالثة..

يهمس منصور لنفسه، وحين يدوس بيساره الدرجة الرابعة يحس أنها أعلى قليلا، فيرفع قدمه أكثر من السابق لتقع على لحم رطب، فيتسمر فى مكانه، ثم يطلق صرخة تدوى فى أرجاء البيت، ويقذف بوسادة الحطب بعيدا عنه، وتختلط بصراخة ضحكات نديم الذى ينهض بعد تمدده مستلقيا على درجة السلم الرابعة، ويركض نديم نحونا، فيركض خلفه منصور، ويختلط الأمر على النساء السامرات فى غرفة عمتى أسماء مع جدتى وعمتى آمنة وأمى وجواهر، ولا يعرفن إن كان ما حصل شيطنة أم أن مكروها قد حصل لأحد، وحين تتوالى لعنات منصور الغاضبة، تقول جدتى: إن هذا من جنان الأولاد، ثم تنادى زهرة فترد عليها من قرب باب المطبخ وتقول:

- لا تخافوا، فهذا من عبث منصور وتهوره، وقد حذرته فلم يحذر..

ويستمر ضحك نديم وعمى عبدالحميد، أما أنا ومحمود فنتصنع الابتسام عندما يكون نظر منصور بعيدا عن وجهينا ونقطب حواجبنا إن هو نظر إلينا.

●●●

تظهر زهرة على باب غرفة عمتى آمنة وتظهر ابتسامتها المخفية تحت لثامها فى عينيها وتسأل منصور:

– هل حصلت على الجائزة يابطل؟!

ولفظ (البطل) هو مايستخدمه منصور كثيرا، خصوصا عندما يتحدى أو يسخر من الآخرين، لكنه لايرد عليها وإن همهم بألفاظ السخط على أخيه وعلينا، وبدلا عنه يجيبها عمى عبدالحميد بأن شرطه كان أن يأتيه بأمارة من (حر السود) لاتوجد فى أى مكان غيره ليتأكد أنها منه.

تعود أختنا زهرة لتسأل عمنا الضابط:

– ألن تعطيه شيئا، لقد فزعنا جميعا لفزعه!

فيرد عمنا عبدالحميد:

– بل سأزيل فزعكم جميعا من هذا الظلام اللعين..

– كيف؟!

– عندى جائزة لكم جميعا، سأذهب صباح غد إلى مؤسسة الكهرباء لأطلب توصيل الكهرباء إلى بيت الشمس هذا.

– ومن أين لنا بقيمة كهرباء الشركة وهى تطلب ثمنا كبيرا؟

يرد عمى:

– أولا: قلنا إنها الآن مؤسسة بعد أن ملكتها الدولة.

ثانيا: سأدفع لهم قيمة الاتفاقية وأسجلها باسمى لأن هذا يوفر عليكم نصف المبلغ..

– والنصف الثانى؟

– ألا تستطيع أختى أسماء توفيره؟

فتمضى أختنا زهرة وهى تقول:

– لا أدرى، سوف أسألها!!

●●●

ظهر اليوم لانعود من المدرسة إلا وخطوط تسليك الكهرباء داخل بيت

الشمس، قد امتدت من فوق مدخل البيت حتى السلم، وثلاث غرف، هى غرفة أولاد عمى حسن، وغرفة ديوان الوسط، ثم الغرفة المشتركة لعمتى أسماء وجدتى بتول، لكن الكهرباء، لم تشتعل قناديلها بعد، وعندما يجمعنا المطبخ، تفاجئنا عمتى بقولها:

- إن عمكم عبدالحميد سيرسل أحد عسكره لحمل الطعام مع نديم إلى سجن القلعة..

قول عمتى هذا يعنى أن نديم ابن عمى سيرى أبى لأول مرة، فلم أرد أن أفسد على نفسى تأكيد ذلك بطلبى مرافقة نديم هذه المرة، وأذهب مع محمود بطعام عمنا عبدالستار فى سجن الرادع، وعند عودتنا تدعونا أختى زهرة إلى غرفة الوسط لتناول طعام الغداء، وعندما نسألها عن عمنا عبدالحميد يخبرنا نديم أنه لن يتغدى اليوم بيننا، وربما يمر علينا فى المساء.

بعد الغداء يذهب نديم إلى المدرسة ليقضى وقته فى لعب كرة القدم، وأبقى أنا ومحمود ومنصور الذى لاتنقطع سخريته لانتظارى أنا ومحمود حتى نرى الكهرباء تدخل بيت الشمس لأول مرة، والواقع أن منصور يغالط نفسه، فقد ظهر أنه أكثرنا فضولا وانتظارا لقدوم مهندسى الكهرباء الذى ما أن ظهروا وأوصلوا التيار حتى كان منصور أكثرنا تهليلا وتصفيقا، وتنقلا بين الغرف التى أضاءت وحبستنا لنصلى المغرب جماعة فى البيت، وانتظار عمى عبدالحميد ليشعر بامتناننا لعظيم فعله.

يدخل عمنا وهو ممسك بيد نديم، ويدعونا للسمر على ضوء قنديل الكهرباء لأول مرة، ولكن فى ديوان الوسط الكبير حيث سينام، فلا ندخل الديوان إلا وموقد العشاء أمامنا وعليه وعاء المقلى ذو الحلبة الفوارة، وبجانبه وعاء آخر فيه شىء من الخضار، وقطعة لحم نصيب عمى عبدالحميد من وجبة الغداء، فغير عمى بدلته العسكرية، وتدخل أختنا زهرة بفناجنين قهوة القشر الصينى

الصغيرة.

ينظر عمنا إلينا ونحن مبتعدون عن طعامه قليلا، فيسألنا:

- هل تعشيتم؟

وحين نرد عليه هامسين:

- (لا)

يقول لنا:

- ما لكم متبلدين، إنه لى ولكم..

ثم يطلب من زهرة أن تنادى عمتى آمنة لأنه يريد أن يكلمها فى موضوع مهم.

حين يرى عمنا عبدالحميد عدم جرأة أى واحد منا على مشاركته طبق الخضار مع قطعة اللحم اليتيمة، واكتفاءنا بسلتة الحلبة، يمسك وعاء الخضار بطرف أصبعيه ليخلطه بالخضرة، ويحركه بقطعة من الخبز الملوح، ويقول باسما:

- هكذا أفضل!!!

تقبل عمتى آمنة، ومن خلف باب الديوان الكبير تقول لعمى:

- مساء الخير ياأخى عبدالحميد.

- مساكم بالخير..

- كيف حال أخيك محمد؟!

يرد عمى وهو يمضغ لقمته، ويصب قهوته:

- بخير، كنت أريد إخبارك ياأم نديم..

تقاطعه وتقول:

- قل لى هل ابن أخيك هذا يمكنه زيارة أبيه فى السجن؟

- إن شاء الله، إن شاء الله، المهم أنا قد اتفقت مع أصحاب الوزارة على

إرسال نديم ليدرس الطب في جامعة الأزهر في مصر.

– ومن أين لولدي بمصاريف السفر والدراسة؟

– باللنسبة للسفر سيسافر نديم مع طائرة من طائرات المجهود الحربي.

– ومن أين سيأكل ويعيش هناك؟

– الله يعاقبك ياأم نديم، قلت لي أني سجلته في قائمة طويلة مع طلاب آخرين في بعثة دراسة جامعية.. يعني أن الحكومة المصرية ستنفق عليهم ولن يحتاج لشيء، حتى الطائرة على حسابهم.

– خيرة الله، كان مع نديم مصروف وإدام!!

– سأعوضكم عنها، وسأقرر مثلها لمحمود ومنصور، لكل واحد مثلما كان مع نديم!!

– الله يحفظك لنا، ويصلح ولدك أحمد، ويحفظه لك، العيال عيالك وأنت أخبر بهم منا.

– المهم جهزوا حالكم لسفره بعد شهرين أو ثلاثة.. هل أعجبتكم الكهرباء؟

– تريد الحق، والله لن تعجبنا إلا إذا تم صنعيك ووصلت الكهرباء لباقي الغرف..

وتدخل عمتي أسماء بطبق فاكهة، وتضعه أمام عمي عبدالحميد الذي يستند الآن على وسادة خلف ظهره، وتقول باسمة:

– مادمت قد حكمت بأن نصف الاستهلاك عليك، ونصفه علينا فلابد من سراج لكل البيت، وإلا فإنه سيبقى في الديوان لك وحدك.

– كيف؟!

– لن نشغله بعدك فلازالت لدينا الفوانيس.

– أبدا..

يقولها مبتسما، فترد عمتي:

- لا، ولكن حتى تعود مرة أخرى بالسلامة إن شاء الله.

فيمسك عمي بذقنه ويقول:

- الله المستعان يا أختي، من لي غيركم، سيأتي المهندس غدا لإكمال بقية البيت حتى الحجرة العليا حق أخي عبدالوهاب، لأنني سأحضر لكم زوجتي لتضع مولودها بينكم، لأنكم أولى برعايتها من أهلها.

- نخدمها بعيوننا..

ترد عمتي آمنة من وراء الباب، وتنسحب عمتي أسماء دون أن تقول شيئا فيبدو الامتعاض على قسمات وجه عمنا، لكنه يلتقط شيئا من طبق الفاكهة ويقول لنديم:

- إحمد ربك لأنك قد عرفت المدرسين المصريين، وجو الدراسة لن يكون غريبا عليك هناك، خصوصا وأن المدرسين من الأزهر، والمنهج في مدرستك قريب من الذي في الأزهر!!

- ولماذا سيقفلون المعهد؟!

- ثبت عدم جدواه، وربما إن بعض الفقهاء اعترضوا عليه لاختلاف المذاهب.

●●●

الأهم عندي من توصيل التيار الكهربائي وإضاءة غرفتنا هذا الصباح، هو أنني سأزور أبي في السجن القلعة بعد تلك الشهور من غيابي عنه، فقد سافر عمي عبدالحميد فجر اليوم الجمعة دون افطار كما لم يودع أحدا سوى أختنا زهرة التي صنعت كوب قهوة بن، وأنا سأرافق ابن عمي نديم، لكن تأخرى قليلا مع أمي التي تغسل وجهي بالصابون، وتدهن وجهي، وكفي وسيقاني بدهان يعجب أبي ويستخدمه كثيرا، يصيب نديم بالضجر، خصوصا وأن

شعوره بالتميز يتنامى لأنه سيسافر القاهرة، حيث عبدالناصر، وأم كلثوم، وعبدالحليم حافظ، وشادية، ونجاة الصغيرة، وفريد شوقي، ونادية لطفى، ورشدى أباظة، فأحاول ونحن فى طريقنا إلى السجن أن أشغله بالحديث عن سفره، وأن أجعل هذا التميز الذى أحس أنه يرتع فى ثنايا فؤاده، يظهر على لسانه.

أقول له:

- هل تعتقد يانديم أن من يزور القاهرة يمكنه رؤية جمال عبدالناصر، ومصافحته؟

فيرد:

- طبعا، طبعا.. أما رأيت صورة عمك عبدالحميد خلف الرئيس السلال مع الرئيس عبدالناصر!!.. إن جمال أب العرب من المحيط إلى الخليج؟!

- وهل سترى فريد شوقى؟!

- كيف لا، على الأقل لأغيظ منصور فهو أحب ممثل عنده..

- وتسلم عليه؟

- بالطبع، ألا تعرف ابن حميدو؟

- إسماعيل ياسين؟

- لقد جاء لزيارة بلادنا، ورأيناه فى الفندق..

- لقد أطل علينا من الشرفة.

- تعرف.. لولا زحام الغوغاء، والفوضى، لنزل إلى الشارع، وصافحكم فردا فردا..

ويستمر الحديث بيننا حتى نقترب من بوابة سجن القلعة، ويبقى وجه أبى أكبر عندى من كل شىء، وقد ارتاح بال نديم، واستراح كثيرا لمرافقتى له.

عند البوابة يوقفنا أحد العسكر من ذوى العصى الغليظة، ويسألنا:

– لمن هذا الطعام؟

فأرد عليه:

– لأبى

فيقول:

– من هو أبوك؟

فيرد نديم:

– محمد على.. محمد على الواعى!!

فيقول وعصاه الممدودة تلامس سفرطاس الطعام الذى يحمله ابن عمى:

– غير مسموح بالزيارة إلا لشخص واحد، واحد فقط، ألست أنت الذى أتى بالأمس مع محمد مسعد من طرف الأفندم عبدالحميد؟!

يرد ابن عمى:

– بلى.. لكن هذا ابن عمى المسجون هنا، عندكم..

فيقول لنا العسكرى وهو يدق بعصاه الأرض:

– ابنه أو أبوه لايهم.. الأوامر عندنا تسمح بدخولك أنت فقط.. وهذا الولد عليه الانتظار.

يأخذ نديم منى الخبز ويقول:

– انتظرنى هنا فيقول عسكرى الحبس:

– لا، ينتظرك هناك!!

ويشير بعصاه بعيدا، فلا أعرف أى مكان يعنيه تماما، وأتحرك أبعد ما يمكن عن نظرات العسكرى التى تتعقبنى حتى لاتشتعل بغضب لا أعرف عاقبته.

●●●

مع كل ما يحدث، يظل الأمل – بأن أرى أبى – يصول ويجول فى صدر

عمتى أسماء، وجدتى بتول، وتصر عمتى آمنة على أن أرافق ابنها نديم فقد يتغير الحال.

أتجاوز تبرم نديم بفتح باب الحديث المعتاد عن مصر المتحدة، وعبدالناصر، ورشدى أباظة، وفريد شوقى فى سلطان، ورصيف نمرة خمسة حتى نصل إلى السجن، وانتظره كالعادة ولكننى أقرب فى كل يوم من بوابة السجن، فقد تآلفت مع عصا العسكر، ونظراتهم وقربى من جدران السجن رغم علو ارتفاعها، وبوابته الضيقة على اتساعها للداخلين تجعلنى أشعر بأن أبى يحس بأننى قريب منه رغم الحواجز، وأن حضورى كل يوم وانتظارى حتى يعود نديم دليل كاف لحبى له، وعدم انقطاع أملى فى رؤيته.

يعود نديم - مثل كل يوم - حاملا كيس خبز الكدم، لبيعها فى السوق، ويقبض ثمنها دون حرج منى فيحس قلبى براحة، وأتظاهر بعدم رؤية مايجرى، لكن أخبار نديم عن لقاءاته بأبى يفتر أوراها مع الأيام، مع أنها لاتشفى غليل أحد بسبب طبع نديم، فهو فى مثل هذا كتوم، وقليل الكلام، وطويل البال، وإذا رأيناه يوما منفعلا فغالبا ما يكون منصور هو السبب، خصوصا حين يظن أن أخاه يفسد علاقته - بسبب حماقته - بزملائه فى المدرسة والنادى، وهذا بخلاف طبع منصور المتعجل، الذى لايخفى أى خبر يحس أنه يثير انفعالا، أو دهشة أو يوغر صدرا، أو يجلب كسبا نافعا، قل مردوده أو كثر.

تمر سبعة أيام، أنتظر فى كل يوم منها عودة نديم خارجا من بوابة السجن، واليوم هو الثامن، وأنا واقف بجوار مصطبة عسكرى البوابة المناوب، أتفحص - لقتل الوقت - وجوه وأزياء من يخرج من تلك البوابة حتى يظهر وجه شاب فى عمر نديم أو منصور، وهو فى حلة عسكرية غير متميزة، ونظراتى التى لاتفارقه تحاول تذكر أين ومتى رأيت هذا الوجه فقد تقابلنا

بالتأكيد.

أرى هذا الشاب يتجاهل نظراتى، لكنه يتقدم نحوى فجأة، وكأن ذاكرته تلتقط بسرعة الشيء الذى أبحث عنه حتى انتبهت على وقوفه بقربى وهو يقول:

- ماذا تفعل هنا؟!

- انتظر ابن عمى!!

- منصور؟!

سمعته يلفظ اسم ابن عمى وكأننى خطفت اسمه لأسأله:

- ألست يحيى بدور؟!

- أوقد نسيتنى؟!

- لا، إنما أريد أن أتأكد.

- لكن منصور ليس فى الداخل؟!

- أنا انتظر نديم.. نديم أخو منصور.

- يا الله.. كيف لم أتعرف عليه وقد رأيته قدامى.

- ...

- وماذا يفعل منصور.. أقصد نديم.

- يسلم الطعام لأبى.

- محمد على؟!

- نعم..

- ولماذا لم تدخل معه.

يقولها وهو ينظر نحو العسكرى ذى العصا الغليظة، فيفهم الرجل قصد صاحبه ويقول:

- الأمر عندنا يافندم لشخص واحد فقط..

- ولماذا لايكون مطهر هو هذا الشخص؟!

- اسمى إبراهيم!!

- أقصد ابن السجين.. هذا المنتظر بجوارك؟!

- أمر الإدارة لابن عمه فقط.

يعود يحيى بدور من حيث خرج بعد أن يقول لى:

- انتظرنى، سأعود حالا..

فانتظره، وقد اشتد أزرى، وأعود بذاكرتى إلى المدرسة الابتدائية، ونصف الكعكة التى كنت أعطيها له من كعكة جدتى، لقد أفادنى منصور، بل إن هذا أول مكسب لى من كوننا أولاد عم، ومن كونه زميل المدرسة الأكبر منى بسنا، والأقدم فصلا دراسيا، ولم يكن يتنامى كثيرا بيننا - حتى الساعة - وده زمالة، أو حمية قرابة، ولكنى أعذره وأختلق فى نفسى له الأعذار، ومن جملتها أن هذا طبعه مع كل الناس، وهو لايفرق كثيرا بين صغير أو كبير، قرب رحمه منه أم بعد. فهو متقلب العواطف، سريع الانفعال، وعموما فإن هذا أول دين له فى عنقى، هذا إذا عمل صاحبه يحيى ما أتوقعه الآن منه وهو حصوله على إذن لى بدخول السجن لزيارة أبى، فكيف سيكون اللقاء الأول معه بعد طول غياب.

لايتأخر يحيى كثيرا.. بل يخرج وهو يمسك بيد نديم يحادثه، ويشير نحوى بيده الأخرى التى أتبين فى قبضتها قصاصة ورق يسلمها للحارس ويقول له:

- هذا أمر المدير لشخصين بزيارة محمد الواعى، اترك الولد يدخل الآن، فإن أباه فى انتظاره.

تتواصل يوميا زيارتى لأبى، وأحس بأن عدم اعتراض أحد من النساء فى بيت الشمس، أو خوفه، وبالحد الأدنى شفقته على ولد مثلى من هذا المشوار اليومى البعيد هو فى حد ذاته مؤشر على اكتمال نموى، واقترابى من رجولة من لايخافون عليه، تماما كما أشعرنى بذلك عمى عبدالحميد لأول مرة يوم

تقابلنا فى باب دار البرهان، بل إنه قريبا سيكون بإمكانى تقديم العون والمساعدة للآخرين، ولذلك لمست تضاعف اعتماد أمي وأختى على خدماتى، كما أن ما أكنه لمنصور يتضاعف أيضا ليوازى محبتى - الآن - لنديم ومحمود، صحيح أن منصور لم يتغير، لكننى قد تغيرت حتى أننى أتحين فرصة - لم تأت بعد - لأعبر له عن مشاعرى ولكن بصنيع أسديه له، لأن الكلمات، قد لا تعنى شيئا بالنسبة إليه، وبدلا من أن تحين فرصتى لخدمته، تأتى فرصة معاكسة وهى أن نديم يتأخر اليوم عن الحضور لمرافقتى إلى سجن القلعة، وحين أبدى استعدادى لحمل الطعام دون مرافق، ترفض عمتى أسماء الفكرة، وتطلب عمتي آمنة من ابنها منصور أن يرافقنى، على أن يتأخر محمود قليلا، لأن مشواره إلى سجن الرادع بطعام عمى عبدالستار بدلا من منصور الذى لايمانع، والواقع أن تقبله لأوامر أمه، وعظيم شأنها عنده لما عانته من أجلهم بعد ترملها، ومكانتها فى نفسه، ربما يكون كل ذلك اضافة لأطياف صور محكيات عن حياة أبيه المتوفى ربما قبل بلوغه الرابعة، تجعل والديه الاستثناء الوحيد فى كل اعتباراته، ونظراته للحياة والأحياء، وأسلوب تعامله مع الآخرين.

أبذل جهدى لنسيان كل شئ ونحن نسير نحو سجن القلعة ، محاولا نبش ذاكرتى لأفعل مع منصور ما أفعله مع نديم ، من جره للحديث عن نفسه ، أو عن أمر ذى بال عنده فلا أقدر على شئ .

أقول لمنصور بعد طول صمت :

- هل تعرف أن صاحبك يحيى بدور هو من رتب لى ..

- أعرف ، أعرف .

- لكنى ما أخبرتك قبل الآن !!؟

- بلى ، أخبرت محمود ، وهو من أخبرنى .

- ....

- كيف تعرفت عليه وقد صار مسئولا ؟!

- أين ؟!

- كيف عرفته وأنت لم تره منذ المدرسة قبل الثورة .

- هو الذى تعرف على .

- يا سلام !!

- لولا أنه صاحبك ما اهتم بى .

- كان صاحبى .

- والآن ؟

- هو ضابط ومازلت أنا طالبا .. فاشلا .

- بل ...

- لا بل ، ولا بل بلى .. معك حديث غير هذا ؟!

فأقدم صمتى ، وألغى ثرثرتى وتكلف مالا يرغبه صاحبى ، وابن عمى حتى لا أفسد التزامى الذى لا يبين بسداد دينه ، وحتى نصل بوابة سجن القلعة فلا يعترض على دخوله معى السجان وإن تأمل سحنته ، وأطال فى تفحص أوعية الطعام ، مع أنهم يفحصونها لاحقا فى غرفة الضابط المناوب بعد أن يستلمها أبى مع المقرر من خبز البيت .

كالعادة تتم المناداة على أبى ليخرج ويستلم أولا من حامل السفرطاس الأكل ، ويسلمه أبى وعاء خبز الكدم والأوعية الفارغة الأخرى ، ثم أسلمه أنا الخبز الذى معى .. ويسألنى أبى عن أحوالنا فأرد عليه :

- الحمد لله .

ثم يلتفت أبى نحو منصور ويسأله :

- وأنتم كيف حالكم ؟!

فلا يجيبه منصور بل ينظر فى وعاء الكدم الذى استلمه من أبى ويقول :

- وهذه الكدم ماذا أعمل بها ؟!؟!

فيبعث سؤاله ضيقا فى صدري وقلقا لا يدركه منصور ولا أبى الذى يرد عليه فى ضيق :

- مثل كل يوم ؟!

فينفعل منصور يقول محتجا :

- وأنا ما أدرانى ما معنى مثل كل يوم ؟!!

فيغلق أبى باب الحوار مع منصور ويقول :

- اسأل نديم وسيخبرك

ثم نغادر بوابة السجن وأنا فى حيرة شديدة ، فأنا إذا أخبرت منصور بما يفعل نديم ، أو أشرت عليه ببيع الكدم فى السوق فلابد أن يفلت لسانه ، ويعرف نديم بالخبر ، كما أننى لو سكت ولم أخبر منصور بشئ فلابد أن يسأل أخاه - بحسب ما قاله أبى - عن كيف يتصرف بالكدم التى يستلمها كل يوم من أبى ، وأخيرا يستقر رأيى على الصمت والتغابى كأنى لا أعرف شيئا ، برغم إلحاح منصور أن أخبره بشئ عن مصير الكدم ، إلا أننى أتجاهل إلحاحه لتوقعى أن اسمى سيكون ضمن حكاية منصور وخبره ، وأنا أريد اتقاء وعيد نديم بأنه سيطرحنى أرضا ، وسيبصق فى فمى إن أنا قلت شيئا لأحد ، لكن عدم قولى أى شئ لمنصور سيدعم ثقتى وأننى لم أقل شيئا ، ولم أخبر أحدا ، ولو طلب منى نديم اليمين على ذلك فسأقسم له أننى لم أتفوه بشئ ، وأن الحكاية كذا وكذا كما حصلت تماما .

عندما ألاحظ - بعد عودتنا إلى بيت الشمس - عدم وجود نديم لعدم مفارقتى لمنصور وهو يبحث عن أخيه ، خوف أن أفاجأ بشئ لم أعمل حسابا له ، أنصح منصور أن يترك الكدم على ساحل حوض المطبخ دون أن يقول شيئا فلا يخيب ظنى .

ندخل المطبخ وليس فيه سوى جدتى بتول ، وأختنا زهرة .

يقول منصور بصوت مرتفع يريد لفت الأنظار المنشغلة عنه :

- هذه الكدم مثل كل يوم من عمى محمد ..

فتلتفت جدتى مستغربة :

– مثل كل يوم ؟!؟!

– ويزيد الطين بلة تعقيب من زهرة ، ويتغابى منصور ويقول وهو يشير نحوى:

– ألا يسلمكم هذا ، ونديم الكدم كل يوم ؟!؟!

فتؤكد له المرأتان بالقطع التام لا شئ يصلهما سوى الأوعية الفارغة ، فيبتسم منصور وكأنه يضمر فى نفسه شيئا ، لكنه يقول قبل خروجه من المطبخ :

– على كل حال ، هذا ابن عمى عندكم فاسألوه ، وأنا سأسأل نديم !! ..

* * *

على مائدة طعام الغداء لا أسلم من حدة لسان منصور الذى يبالغ فى تمتعه بمذاق الكدم اللذيذ المصنوع أصلا لجنود الحكومة ، ويوزع من قصر السلاح المجاور لسجن القلعة ، كما يحصل منه المساجين على نصيب ، كما يباع شئ منه عبر وسطاء لبائعى الخبز والكدم المنتشرين فى سوق الملح وباب السبح .

ينظر منصور نحوى وهو يسأل محمود :

– هل يرضيك أن يتمتع غيرنا بهذا الغذاء اللذيد المصنوع من كل ما خلق الله من الحبوب ، ويستلمه نديم كل يوم من عمنا ونحن محرومون !!

ويعيد عبارته تلك أمام زهرة وجدتى بتول التى تتظاهر بعدم سماعها لتلميحاته، وحين يبلغ الخبر عمتى أسماء على مائدة طعام النساء التالية لمائدتنا تدافع عمتى بشدة عن نديم وتقول :

– لا ، لا ، كل شئ إلا نديم ، فوالله إننى لم أعرف منه كذبا .. نديم لا يخفى عنى شيئا ، وهو لا يرضى أن يأخذ منى أى نقود إذا ما كلفته بمنفعة لى ..

فترد أختى زهرة :

– لكن يا عمة نديم تأكدى من ابنكم ؛ لأن منصور يقول إن عمه محمد قد قال إنه يسلم الكدم لنديم كل يوم ؟!

فترد أمى :

- لا يزال الأولاد فى سن لا يجب علينا أن نثقل عليهم بهذا الأمر البسيط ؟!

فتقول عمتى آمنة :

- إذا لم نحرص نحن على تربيتهم فمن سيربيهم ؟! أصحاب الشوارع والدكاكين ؟!

فتنهض بعد هذا القول زوجة عمى عبدالستار دون أن تقول شيئا ، ودون أن تكمل غداءها مع النساء .

* * *

اهتمام عمتى أسماء بالمسألة ليس لشئ إلا لما تعتقد أنها مسألة مبدأ تخشى معها أن نديم لو كان يخدع الجميع فى هذه المسألة ، ويكذب عليها ، فالقياس على مسائل أخرى سيجعلها تتعامل معه بحذر شديد مما ينفره ويبعده عنها ، ولا بديل عندها لنديم حتى الآن .. ثم لو أن أحدا علم بفعله الذى تظنه عيبا كبيرا فماذا سيقول ، وماذا سيقول الناس عن سلوك جميع أولاد بيت الواعى ؟!

وماذا عن دينهم وأخلاقهم وخصالهم الأخرى إذا كذبوا وهى ترى ذلك الدين ، وتلك الأخلاق ، هما كل رأس مال الأسرة خصوصا بعد أن قلبت الثورة أخلاق الناس رأسا على عقب ؟!!! .. والخلاصة أنه يتم اتفاق بين عمتى آمنة بعيدا عن منصور ، وعن كل الآخرين بأن تتدبرا الموضوع بهدوء شديد ، وثقة يجب أن تبقى فى رجاحة عقل نديم ، مع عدم التفريط بمعرفة مصير الكدم خلال الفترة الماضية ، أما أنا فلا أجد مخرجا للقاء نديم قبل أن يلقاه أحد قبلى لأنبهه حتى يجد العذر المقبول ، والتفسير المعقول ، وأهم من هذا حتى أؤكد له أن لسان منصور هو الذى انزلق قصدا ليضخم المسألة ، لكن ليس من أحد حتى هذه اللحظة يعرف أنه يبيع الكدم فى السوق ، الشئ الذى لا يقبله أحد ، لا عمتى أسماء ، ولا أمه ، كما لا يتصوره أحد من معاريفنا أو أقاربنا .

أفكر فى الذهاب إلى نادى المدرسة ، للقاء نديم لكنه حل لا أقدر عليه لأننى نادرا ما أمر على المدرسة والنادى ، وإذا صادف أن دفعتنى الضرورة للذهاب إلى هناك فأنا أقضى غرض الزيارة ، وأغادر بأسرع ما يمكن خوف اتهامى – لو رآنى أحد – بتضييع الوقت فى المسخ ، ولعب الكرة ، وتدخين السجائر .

أقضى بقية النهار متناسيا الموضوع رغم خوفى أن يسبقنى منصور ، فهو كثير التردد على مقر نادى المدرسة وله معاريف من أعضاء النادى وبعضهم أصدقاؤه لصداقتهم لأخيه نديم ، لكننى أدفع مخاوفى بمبررات شتى ، وآوى إلى فراشى مبكرا دون إظهار أى شئ لأختى وأمى التى تنتظر وليدها .

عندما يعود نديم تلقاه عند الباب أختى زهرة لقرب باب غرفتها (الوسط) من باب البيت ، ولأن عمتى أسماء طلبت منها أن تبلغه بأنها تريده فى مسألة قبل أن ينام ، فيظن أنها ستطلب منه – كالعادة – عملا ما ، فيسرع وهو لا يعلم بشئ عن مراد العمة ، كما أنه الآن أحرص على رضاها ورضى والدته ، ولا يريد أن يعكر صفو أمر سفره إلى القاهرة ، خصوصا وهو يأمل من عمته أن تعطيه ما يساعده على الاستقرار هناك .

يدخل نديم غرفة عمتى أسماء ، وجدتى بتول تحت غطاء نومها ، لا يبدو من جسدها إلا رأسها الملفوف بلثامها الذى لا تفارقه ولا يفارقها حتى وقت أدائها الصلاة . لا يبدو فى وسط اللثام غير وجهها وهو مغلق الجفنين كأنها لا تريد الإحساس بدخول حفيدها وما سيدور من الحديث بينه وبين ابنتها .

بعد مساء الخير تقول عمتى أسماء :

– اجلس يا ابن أخى ..

فيجلس نديم متوقعا خيرا ، لكنها تقول له :

– أنت تعرف أنه لو كان لى ولد فلن أحبه أكثر منك ..

فيزيد شوق نديم لسماع المزيد ظنا منه أنها ستحدثه عن فراقه وولعها به ، والأثر الذى سيتركه غيابه عليها .. غير أنه يفاجأ بعد رده بالإيجاب بها تقول :

- لقد سمعت اليوم خبرا عنك لم يعجبنى أبدا ، وأنا لا أريد أن أجعلها مسألة كبيرة ، لكن ثقتى فيك ، ومحبتى لك جعلتنى لا أصدقها كما سمعتها ، والآن أريد منك الحقيقة .

فيرد نديم والدهشة تعقد حاجبيه :

- قصة لا تصدقينها ؟! قصة ماذا يا عمة وأنت تعرفين نديم ؟!!

تقول :

- نعم .. أعرف أنك لا تغش ولا تكذب ، ولكن قل لى ما هى قصة الكدم التى يرسلها معك عمك محمد ولا نرى لها أثرا ، وتأكد أننى سأصدق كل ما ستقول ، ولكن تذكر أن المسألة لا تتعلق بكدمة أو كدمتين ، لكنها متعلقة بسيرة الإنسان ، وتعامله ، وثقة الآخرين به .

ينهض نديم وقد تغير لونه ويقول :

- لا أصدق يا عمتى أنك استعجلت لقائى لهذا الموضوع التافه الصغير .. كنت أظن المسألة أكبر ، عموما قولى لى من أخبرك ..

تهدأ عمتى من روعه وتقول :

- إجلس يا ولدى إجلس .. فأنا أعرف أين تذهب بها ، لكن أخاك منصور قد جعل من الحبة قبة ، ولا أريد لحديثى معك أن يخرج لأحد أبدا لقد جهزت لسفرك كل ما يعجبك ، ولكن طلبى لك قبل أن تدخل غرفتكم ما كان إلا لتعلم ما حدث فى غيابك لما يمكن أن يشكل مشكلة لأمك ، ومعركة مع أخيك ..

فيقاطعها نديم :

- ماذا قال لك هذا الملعون ؟؟

فترد عليه :

- قلت لك لا أريد مشكلة على شئ لا معنى له .. اهدأ واجلس وقل لى الصدق .. مع أنى أعرف ما ستقول ..

يظن نديم أنها قد علمت منى ، أو من منصور بأنه يبيع الكدم ، ويحتفظ بقيمتها له وحده .. أو أننى شكوت أنه لا يعطينى من ثمنها شيئا ، ويريد أن يتأكد من ذلك كله فيسألها :

– من الذى حكى لك قصة الكدم ؟! هذا مهم لأنى أريد أن تعرفى كذبه .. هل هو إبراهيم ؟!

تقول عمتى :

– الحق أن ابن عمك يحبك – ربما – أكثر من أخيك ، وأنا لم أسمع منه أى كلمة .

يقول نديم :

– إذن فهو منصور الكذاب ، فماذا قال ؟!

ترد عمتى :

– إذا أردت إنهاء الموضوع فأنا راضية ، ولكن سيبقى عليك فى نفسى شئ .

يتذكر نديم سفره وحاجته لمساعدة عمتى أسماء؛ لأنه لا أمل لديه فيما بين يدى أمه التى ليس فى يدها شئ يمكن أن يعول عليه ، فيتمالك نفسه رغم الحنق الشديد من أخيه فى صدره :

– إنها أربع بقش ، لا أقل ولا أكثر ، وأحيانا تبقى دينا حتى يوم ثانى عند من يشتريها .

تخفى عمتى أسماء دهشتها من بيع ابن أخيها كدما فى السوق وهى التى تعرض عليه من وقت لآخر أضعاف ذلك ، ونادرا ما يأخذ شيئا لأنه يعتبر أن ما يقوم به من عمل هو من باب الواجب ، وأخلاقه لا تسمح له أخذ شئ لقاء واجبه ، كما أن عزة نفسه ، وفقدان أبيه المبكر تجعله أكثر إعراضا عن أخذ ما تعطيه عمته أو غيرها .

تقول العمة أسماء :

– يا ولدى ، كنت أفضل لو سمعت منك ما كنت أظنه فيك ..

– ....

– كنت أتوقع أنك تعطى الكدم زملاءك فى المدرسة ، خصوصا وأنت تشاركهم الغداء والعشاء أكثر الأيام .. ماذا لو رآك أحد معاريفنا أو جيراننا ؟! .. حتما سيقول : أولاد بيت الواعى يبيعون إدام المحابيس .. كيف تفعل

ذلك وأنا أسألك دائما عن حاجتك ، وأعرض عليك ما تعرضه أم على ولدها ؟!
.. لا ، لا يا نديم لست أنت من يفعل ذلك ، حاجتك عندى وليس فى سوق اللقمة .

وتنهض لتعطيه خمسة ريالات ، فيرفض ولا يخرج عن صمته الغامض ، وشعوره بالألم من نفسه ، والغيظ من أخيه منصور .

يخفى نديم ألمه ، ولا يظهر عند دخوله الغرفة لأخويه وأمه أى أثر ، لكنه يبحث عن فعل شئ قد يشفى غليل نفسه .

يدرك منصور - الذى لم ينم بعد - أن شيئا ما ليس فى مصلحته يدور فى نفس نديم ، وإلا فما الذى أخر دخوله الغرفة .. لاشك أن جدتى بتول تريد الإيقاع به ليكون لها طيعا كالآخرين ، أو على الأقل ليكف عن أفاعليه أمامها لأن ذلك يؤثر على هيبتها ، وأم نديم هى الأخرى لا تفتح بابا للنقاش ، ليس لأنه موضوع قد تم وانتهى ، ولكنها أوامر العمة أسماء التى تكن لابنها احترامها وحبا أكثر من أخويه ، وهذا محمود يتناوم خشية أن تثور مشكلة بين أخويه وهو لا يريد أن يتهمه أحدهما بالتواطؤ أو التعاطف مع الآخر ، وتمضى هذه الليلة على خير لأن نديم لا يريد فعل شئ يؤلم أمه ، مع ذلك يرى أنه لابد من تأديب هذا الذى كاد يدفعه لفعل حماقة مع عمته ، وتجنب العراك مع أخيه الآن سيقيه شتائمه وصراخه ، فيقرر فى نفسه قبل أن يغمض عينيه أن يفعلها مبكرا ، ويسرع بعدها إلى الجامع لصلاة الفجر .

* * *

بعد أن تنتهى عمتى آمنة من صلاة الفجر تنادى أولادها - كالعادة - فيكون نديم أول المستيقظين ، وما أن تغادر غرفتها نزولا نحو المطبخ ، حتى يستيقظ منصور وكف نديم تضغط على جبهته ، بينما يده الأخرى تفتح فمه ليبصق فيه ، ويسرع نحو الجامع بعد أن يقول :

- هذا جزاء المنافق يا منصور .

* * *

الشيخ بهلول

تدخل علينا شهور النصف الثانى من الستينات حتى شهر رمضان لأول مرة بعدما استولى الشيخ وليد سلطان الناظر على دار البرهان ، فيغير هذا الشهر كل شئ فى حياتنا فى بيت الشمس .. أعرف أن أيام رمضان تختلف عن أيام السنة الأخرى ، وأن ذلك ليس عندى فحسب ، بل فى كل بيت فى المدينة ، لكنه يشكل بالنسبة لى شيئا مختلفا تماما ، فأولا هذا أول صوم لى فى بيت الشمس ، ولذلك يكون أول تغيير فيه هو أن مكان الصلاة يكون فى المسجد الجامع القريب من البيت ، وكانت صلاتى فى رمضان الماضى وقبله فى مسجد البرهان ، بمعنى أن الناس غير الناس ، وهم محدودون، وقد ألفوا وجوه بعضهم إلى درجة الملل ، حتى أطفالهم الذين يتعلمون صلاتهم مع الكبار شديدى الفوضى واللعب أثناء الصلاة لأنهم إما فى أطراف صفوف الكبار أو أنهم يشكلون صفا مستقلا بين آخر صف يشكله الرجال عند الحائط الخلفى للمصلين ؛ تاركين فراغا كبيرا بينهم وبين الصف الأول ، وأحيانا الصف الثانى خلف الإمام ، والمهم أن الجميع يكتشفون أى غريب عن المسجد ، ويراقبون – بشكل لافت – مواعيد حضوره ، وصلاته ، ودرسه للقرآن ، ويطلبون منه مشاركتهم فطور صيامهم إن لم يكن معه إفطار ، وإلا وضع طعامه مع أطعمتهم ليأكل الجميع مع ما يمكن أن يشكل عدة موائد بسيطة متقاربة ، كما أننى أشارك – لأول مرة – أولاد عمى حسنى الصوم والصلاة والطعام والسمر ودرس القرآن ، وحمل الطعام للمساجين بعد صلاة العصر مباشرة .

بعد الثلاثة أيام الأولى من الصوم فى بيت الشمس ، تبدأ ملامح الاختلاف

والتشابه مع صومنا فى دار البرهان فى الوضوح والاستقرار ، حيث تتجمع النساء وقت المغرب للإفطار فى ديوان الوسط ، وكل امرأة فى ثوب صلاتها الأبيض ، مع غطاء أبيض يخفى شعرها ، وينسدل على كتفيها ، ثم تعود كل امرأة للصلاة فى غرفتها ، بينما يحمل الأولاد حبات التمر ، ووعاء الحلبة الحامضة ، وخبز اللحوح ، وملوجة الشعير إلى المسجد الجامع قبل المغرب ، ثم نتوضأ فى مطاهيره التى لا يتم تغيير مائها إلا فى اليوم التالى ، ونجلس بعد الوضوء مع الجالسين ، نفترش الحجر الحبش فى سوح الجامع الذى لم يزل دافئا لحد ما من أثر شمس النهار الغاربة ، ويتوافد كل المجاورين للجامع كل ينظر إلى ساعته أو ساعة جليسه التى يعبأها فى مثل هذا الوقت من كل يوم .

ورغم أنه تم تركيب مكبر صوت وميكروفون لرفع الأذان عند كل صلاة ، إلا أن قيم المسجد عند أذان المغرب يتشدد فى فهم التعجيل بالفطور فيكلف أوسط أبنائه بالصعود إلى أعلى المئذنة ليراقب سطوع أول ضوء من مئذنة الجامع الكبير الذى لا يؤذن للصلاة أحد قبله ، فإذا أعلن دخول الوقت لمع قنديله ليرفع الولد الذى يراقبه الحاضرون يده فيرتفع صوت أبيه بالأذان من أمام ميكروفون المحراب ، وترتفع أصوات المصلين ولغطهم ، خصوصا فى سوح الجامع ، فلا تخف تلك الأصوات وتهدأ إلا عند أول ركوع لإمام الصلاة ، حيث يركض أغلب المتخلفين ليلتحقوا بصف صلاتهم الذى يشكلونه فى الطرف القصى للجامع ، وأحيانا فى أول السوح ، رغم أن الصفوف الأولى لم تكتمل بعد ، أما من تخلف ليدخن سيجارة فى زاوية السوح فلا ينضم للجماعة فى صلاتها إلا عند آخر ركوع .

* * *

حين يبلغ العجب مبلغه عند أحد المصلين على ما استحدثه قيم الجامع من مراقبة سطوع ضوء مصباح الجامع الكبير ليعجل برفع أذان المغرب ، يصرح بعجبه ذاك ونحن جلوس فى السوح نثرثر بعد درس قليل للقرآن فى انتظار أذان صلاة العصر ، فيرد عليه أحدهم إن هذا اتباع لسنة رسول الله راوياً الحديث

القائل «ما تزال أمتى بخير ما عجلوا فى الفطور ، وأخروا السحور» فيزداد عجب الرجل لهذا التأويل ويقول إن الفرق بين رؤية ضوء المصباح على مئذنة الجامع الكبير - رغم هذه المسافة - وسماع الأذان المتتابع من المساجد الأخرى لا يتجاوز ثوان معدودة ، إنه الفرق غير المذكور - رغم بعد الجامع الكبير - بين سرعة الضوء وسرعة الصوت ، فيجيبه بعض الحاضرين بأننا سنتبع السنة حتى لو كان الفرق ثانية واحدة ، ويسخر آخر قائلا :

- لم تجد ما تحتج به إلا مسائل الكفرة !!

- وما الكفر فيما قلت ؟!!

- أنك ذكرت الضوء والصوت والسرعة ، كأنك لا ترى أصحاب تلك البدع إلا مؤمنون ونحن كفار !!

- أعوذ بالله

- قل أستغفر الله .

- وإلا ؟!!

- وإلا سحبناك بقذالك لنرميك خارج المسجد .

- أعوذ بالله واستغفر الله وحده .

- هاه ، هكذا الكلام .

- ويؤمن الحاضرون ، ويهدأون قليلا قبل أن يرفع قيم المسجد أذان صلاة العصر لنصلى ونعود بعدها للبيت لحمل طعام المساجين فى سجن الرادع ، وسجن القلعة .

* * *

كما طعامنا يختلف طعام المساجين فى رمضان ، فإن عمتى تأخذ فى أول أوعية السفرطاس شيئا من لبن الشفوت منزوع الدسم الممزوج بقطع جحينة الذرة لأبى الذى يفضله على شفوت خبز اللحوح لنا ولعمى عبدالستار ، وفى الوعاء الثانى تضع عمتى أسماء شيئا من شربة البر الذى يأتينا من أرض صغيرة

لجدتى بتول فى التخراف ، أما الطبق الثالث أعلى السفرطاس الذى سنحمله فيكون لشئ من الخضار المتنوعة والمختلفة التكوين من يوم لآخر مع استثناء البطاطا فهى أصل طبق الخضار فى كل يوم ، ولا نعود إلا قبل أذان المغرب لنأخذ من مطبخ جدتى المعتاد لفطور صيامنا من ثمرات التمر وحلبة الحامضة ، وخبز اللحوح الطازج ، والملوج ، ولا كدم من حق الحبس ، لأنها قد أصبحت من نصيب نديم الذى يمر بها بعد عودتنا من سجن القلعة ليسلمها لزملائه فى نادى المدرسة .

بعد تناولنا العشاء فى غرفة الوسط ، يحمل منصور أو نديم مرجل القهوة الصغير ، وأحمل أنا أو محمود فناجين الصينى الصغيرة حيث نجلس كل ليلة بعد العشاء ليشرب كل واحد منا ما يقارب فنجان ونصف من تلك الفناجين الصغيرة فى غرفة أولاد عمى حسن ، حيث نحتسى فيها قهوة قشرة البن الذى يأتينا من الحيمة حيث أخوال عمى عبدالحميد فتصنع منه جدتى قشرا يكاد يكفينا لصنع القهوة شهور الشتاء كاملة ، وطرفا من شهور السنة الأخرى ، لكن البن المستخرج منه لتحميصه وخلطه بالتوابل وطحنه ليس إلا للكبار ، يستثنى منهم إحدى بنات عمى عبدالستار ونديم ومحمود وعلى عبدالستار فهم لم يكبروا بعد فى نظر جدتى وإن رأيناهم كبارا ، لذلك فإن عليهم وعلينا نحن أيضا ، أن لا نكثر من شرب قهوة قشر البن ، وإلا تبول الواحد منا فى فراشه كما حصل مع منصور ، ولذلك يحرص نديم على أن لا يتناول أحدنا أكثر من نصيبه الذى أراه أنا قليلا جدا لشغفى بهذه القهوة ، وحبى لها حتى بدون سكر كما كانت فى دار البرهان ، فقليل منه لا يضر كما كانت تردد جدتى أميمة .

* * *

بعد تناول العشاء مع قليل من الضحك والمزاح ، وتذكر ما جرى فى المسجد الجامع من أفاعيل الناس المختلفة ، نبدأ فى تلاوة سورة ياسين غيبا مع أنى

حديث العهد باستظهارها عن ظهر قلب ، ومنصور يراقبنى بخائنة عينيه ، ولا أدرى إن كان يدرك خفضى لصوتى حال التلاوة الجماعية خوف سماع أحد لأى خطأ منى ، مستغلا التلاوة الجماعية لإخفائها ، لكن محمود يقلب المصحف لأقرأ معهم الآيات التى تتلى بعد سورة ياسين بعد كل عشاء فى رمضان والتى لم أحفظها بعد ، وهى الآيات الأخيرة من سورة الروم ، وسورة البقرة وسورة الكهف وسورة الحشر ، ثم يفتح لى المصحف على سورة الملك لأتابع التلاوة معهم ؛ لأنهم يتلونها عن ظهر قلب وهذا يعطى منصور شعورا بالتميز .

* * *

بعد شرب القهوة ، ودرس القرآن ، نذهب نحن الأربعة لصلاة العشاء ومواصلة درس القرآن فى المسجد الجامع ، ودائما ما يتخلف منصور قليلا بدعوى إعداد مكان المحراس لسمرنا حتى وقت السحور بعد عودتنا من المسجد والحقيقة أنه قبل أن يلحق بنا يجلس وراء باب حوش بيت الشمس ، مستأنسا بصوت الراديو ، والضوء الصادر عن قهوة سمير المقابلة للبيت ، وهو يدخن جزءا من سيجارته ، ويدفن البقية منها بعد أن يطفئه بقليل من التراب فى ركن قصى خلف الباب ، تاركا علامة صغيرة بالطباشير على ظهر الباب ليعرف الموضع الذى دفن فيه باقى سيجارته مع الكبريت .

عندما يدخل منصور المسجد ، يهمس لى محمود وهو يخفض أكمام ثوبه بعد تمام وضوئنا فى المسجد :

– انظر كيف سأجعل منصور ينفعل دون سب أو شتم ..

ويتبع محمود أخاه حتى يدنو منه وهو يدس حذاءه فى كوة حفظ الأحذية ، ثم يدنى رأسه من رأس أخيه ، فيبتعد منصور دافعا أخاه ، وأسمعه حين يمر من جوارى نحو مطاهير المسجد ليتوضأ وهو يقول :

– يتشمم هذا اللعين ، لماذا لا يذهب إلى مقهى المدرسة ليرى نديم كيف يدخن

وبعد صلاة العشاء يتفرق الناس ، ونؤدى صلاة السنة فى أماكن متباعدة ، ويخرج أغلب المصلين تباعا حتى لا يبقى فى المسجد الجامع غيرنا نحن الأربعة وصلاح ابن الشيخ جمال بهلول جارنا ، وقيم المسجد ، ورجل عجوز يهتز رأسه مرة بعد أخرى وهو ينعس أثناء قراءته القرآن ، وشاب أجهده الصوم والفقر وعناء يوم عمل شاق ، يتكوم فى زاوية المسجد لينام متوسدا يده ، ومغطيا رأسه بسترته التى سحبها من خلف رقبته ، وقد أضحت بلون الغبار ورائحته ، وبعد أن يستعيد كل واحد منا مصحفة من خزانة المسجد ، ويفتح كرسى مصحف ليضعه عليه ، ويواصل درسه القرآن من حيث وقف فى درسه بين صلاتى الظهر والعصر، وكل واحد يحاول أن يسبق رفيقه بعد أن استطلع كم من الأجزاء قد قام الآخرون بدرسها منذ أول الشهر .

* * *

بعد دخول العشر الأواخر من رمضان يطول بنا المقام لدرس القرآن ، ونتأخر أكثر فى العودة للسمر بقية ليلنا فى غرفة محراس بيت الشمس ، وذات ليلة ، ونحن نتسابق فى درس القرآن ، وتقليب الصفحات لدرجة عدم الاستيعاب لما ندرسه خوف التخلف عن رفاقنا ، واتهامنا بالتقصير ، يدخل رجل من باب المسجد ويقف متلفتا على ضوء الجامع الضعيف ، ثم يضع حذاءه جوار الباب ، ويتقدم من نديم الذى ينهض ليصافحه ، ثم ينتحى الرجل بنديم جانبا ، ونحن نراقبهما ، ونواصل درس القرآن ، حتى يتصافحا ، ويعود نديم إلى مكانه ، بينما يلتقط الرجل حذاءه ، ويغادر الجامع .

نواصل درس القرآن حتى يمر من الوقت ما يزيد على النصف ساعة ، لكن نديم كلما قرأ قليلا رفع رأسه ، وألقى ببصره أمامه ، مستغرقا فى صمته ، كأنه يقلب أفكارا أو يستعيدها ، حتى ينهض منصور للخروج قبلنا - كالعادة -

وينسحب حاملا حذاءه ، ونديم مستغرق في صمته ، وإن تابعه بنظراته الشاردة ، وبعد رحيل منصور بقليل يطلب منا نديم نحن الثلاثة أن نقفل مصاحفنا ، لنجلس معه فهو يريد أن يقول لنا شيئا .

أقترب أنا ومحمود ويبقى صلاح على مقربة من نديم ومصحفه مفتوح ويقول :

– خير يا نديم ، يبدو أن صاحبك قد شغل بالك !!

– لا أخفي عليكم أنه فاجأني بخبر شغل بالي حتى أنني أقرأ الآية مرتين وثلاثا ولا أدري ماذا قرأت .

– من ذلك الرجل ؟!

– إنه أحد مرافقي عمي عبدالحميد الذي ربما يقضي إجازة العيد معنا في بيت الشمس .

– هل هذا ما يشغل بالك ؟!

– لا ، ولكن قال إن على أن أجهز نفسي للسفر بعد العيد .

– تسافر ؟!

– إلى مصر للدراسة في الأزهر .

– ومن سيصرف عليك؟

– الحكومة المصرية .

– وبعد لحظة صمت، يدعونا نديم لشرب الشاي في قهوة سمير، فيقول صلاح

– في القهوة ؟!! لا، إن كان ولابد نشرب الشاي في محراس سمرنا .

– ليس لدينا أكواب ، ولن يعطينا سمير براد شاي، وقد يطلب رهنا.

– نعطيه رهنا، ولكن ليس نقودا لأنه قد يماطل حتى نشرب بها مرة أخرى في القهوة .

– ويلتفت الجميع، فلا رهن آخر نعطيه، لكن محمود ينظر نحوى ويقول :

– نعطيه ساعة إبراهيم .

– فأقول إنها ساعة أبى ، أعارتنى أمى لاستخدامها فى شهر رمضان فقط وسأعيدها إليها، ولو عبث بها أحد لعتبت على أمى، وتألم أبى وهو فى الحبس ، فيقول صلاح إنها ساعة زمن تبقى فيها ساعة أبى رهنا عند سمير وسنستعيدها حالما نعيد إليه براد الشاى وفناجينه ، ولن يحصل للساعة شيء، لكننى أرفض فثقة أمى عندى، ومشاعر أبى أهم من رضى نديم أو محمود أو أى أحد كان.

حينها يقول صلاح :

– عموما أنا لا أدخل أى مقهى فما بالك إن جاور بيتنا .

– وما الفرق ؟!

– لو رآنى أبى لحرم دخولى البيت .

– ...

– وربما يحرم صورتى ، فصاحب القهوة قاطع صلاة .

– إلا فى رمضان .

– الحق إنه لا يقطع فرضا .

– يا جماعة ، هل الله هو رب رمضان فقط .

– هذه فرصة لك لتأمره بالمعروف .

– وتدعوه للمداومة على صلاته بعد رمضان .

– لا لن أفعل .

– ألا يعظ أبوك الناس فى مسجد البرهان .

– تلك مسألة ، وهذه أخرى .

– كلها أمر بالمعروف .

– ونهى عن المنكر .

- هذا إذا ظن الإنسان التأثير .

- وإذا ظن عدم التأثير .

- الأفضل الترك .

- اسأل أباك أولا وسترى .

- غير أن صلاح يعاود درس القرآن لكنه يتوقف واضعا إصبعه على موضع توقفه وهو ينظر إلى نديم الذى يتجهز للخروج فيسأل محمود :

- لماذا سكت ؟!

- يبدو أن الحق مع أخيك .

- وماذا ستفعل ؟!

- لا أدرى

- تعال معنا مجاملة لنديم قبل سفره .

يتدخل نديم ويقول مازحا :

- اتركة يا محمود فهو لا يحبنى .

- أنا لا أحبك!!.. اعلم ياجارى الحبيب أنه لولا الكرة تغيبك عن الحارة لعرفت مقدار حبنا لك.

- المهم، ألن تأتى معنا؟!

- لا

- ألم تقل قبل قليل إن الحق معي؟!

- يبدو أنك لا تفهمني.

- لا أفهمك؟!

- أنا قصدى فى أن الحق معك فى سؤال أبى فى الأمر بالمعروف قبل أن أرد عليك .

- على فكرة ، أنا محتاج لدروس قبل السفر .

- ستدرس فى الأزهر ما يكفيك .

- ولو كان رأى أبيك من رأيى ، هل ستأتى معنا ؟!

- سوف أرد .

***

فى قهوة سمير نجد منصور منزويا فى ركن جوار الباب ، وحين يفاجأ بظهورنا يحرف وجهه بعيدا، لكن دخان سيجارته الذى امتصه واحتفظ به قليلا فى صدره يظهر من جانبى رأسه حين يخرجه مع زفيره ، وبعد قليل نراه ينهض بعصبية ويخلع سترته بسرعة ليمسك بعنقها ، ويضربها على الارض عدة مرات، ثم يسحب بطانه جيبه للخارج ، لنكتشف انه قد وضع سيجارته فى جيبه ظنا منه أنه قد فصل نارها بأصبعه ، لكنه استعجل ، فلم يتأكد من أن نارها قد انطفأت ، فألقاها فى جيبه ، لكن بقية نارها فى رأسها توالت حتى اشتعلت بقية السيجارة فى جيبه حتى اخترقت سترته وثوبه إلى فخذه ، فانتقض منفعلا ليفعل ما فعل ، بينما يجلس نديم والغضب باد على وجهه لفعل اخيه الذى اضحك سمير حتى استلقى على قفاه ، وجعله محل سخرية اثنين من زبائن سمير تصادف وجودهما ساعة دخلنا القهوة .

جلس منصور مقطبا جبينه، ويطلب نديم ثلاثة أنصاف أكواب شاى، له ولى ولمنصور ، ثم يسحب سيجارة من جيبه ، ويشعلها من شعلة موقد قهوة سمير دون أى حرج أن يراه أحد كما هو حال منصور، ربما ليعلمه شيئا أو ليوحى به .

يعود نديم لمجلسه بجوارى ، ويسحب نفسا من سيجارته وينفث دخانه فى لذة واستمتاع ، فأذكر أبى حين ألمح أن السيجارة تحمل علامة الصنف المفضل لديه .

يقوم نديم وهو يرشف من كوب الشاى الموضوع على طاولة متسخة أمامنا :

- هل تريد نفسا ؟!

- جربها ، إنها كرافن مثل سيجارة أبيك ..

أتلفت يمنه ويسرة وأقول :

- نفس واحد من يدك ..

فيمد يده وأسحب نفسا خفيفا فأجده حامضا، ممتعا وأسرع لرشفه من كوب الشاى الذى طلبه لى نديم ليذهب المذاق والرائحة من فمى ، حتى لا تعرف أمى أو أختى من أنفاسى أنى أدخن السجائر، وأغتنم فرصة انشغال من فى القهوة بسماع راديو سمير ومجاملات نديم فأقول له :

- لماذا لا تصلى الجمعة معنا ، فهذا سيسعد صاحبنا صلاح ويقربك من أبيه

- وما دخل هذا بصلاة الجمعة ؟!

- لأن خطيب الجمعة هو الشيخ جمال .

- لا أظن أنى سأترك جامع المدرسة ، كما أنى ألتقى زملائى هناك

- زملاؤك تراهم كل يوم .. اعتبر صلاتك معنا جزءا من برنامج وداعك لزملاء الحارة والجيران .

- والله فكرة .

- افعلها .

- سأفكر، هل تريد نفسا آخر ؟

- هات ، من يدك .

- اسحب من السيجارة نفسا أشد من الأول ، فيصيبنى سعال متواصل بسبب تهورى حتى تدمع عيناى ، ويلتفت ليرانى من فى المقهى حتى صاحبها سمير، حتى يعلو صوت المذياع وهو يقول :

(سيف بن ذى ، يزن ، مسلسل إذاعى فى ثلاثين حلقة، كتبه للإذاعة ظافر الصابونى، وأخرجه لها إسلام فارس..) .

عند دخولى لصلاة الجمعة فى مسجد البرهان ، أرى محمود فى مقدم المسجد

وهو مستند بظهره على الجدار وهو يبتسم حال دخولى ويشير بإصبعه من تحت كرسى المصحف إلى الجالس امامه، المستند على الدعامة فأتبين أنه نديم، ولا أرى منصور إلا بعد انتهائى من الوضوء .

- بعد تحية المسجد أسحب مصحفا من رف المصاحف وأقرأ شيئا حتى ينادى المؤذن (إن الكلام محرم حال الخطبتين) . وتبدأ خطبة الشيخ جمال الأولى وأنا شارد البال.. ولا أنتبه إلا حال جلوس الشيخ للاستغفار فى منبره بين الخطبتين ، لكن كلامه فى الخطبة الثانية عن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ذكرنى بالحوار الذى جرى مع ابنه صالح، ثم قال : «وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه : إن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق، وقال صلوات الله عليه: أيها المؤمنون ، إنه من رأى عدوانا يعمل به ، ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء ، ومن انكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه» ، ثم تدور فى ذهنى صور عن لقائنا بالشيخ بعد الصلاة لكنه لم يتم كما أتوقعه .

***

حين نتجمع في غرفة الوسط بعد عودتنا من السجن ، قبل أذان المغرب، تأتينا اختنا زهرة بوعاء الحلبة الحامضة وبعض الخبز والتمر وتقول لنديم :

- إن صلاح، ابن جارنا القاضى جمال قد جاء بعد صلاة العصر يبحث عنك، وقال إن اباه يدعوك الليلة لتناول العشاء فى بيتهم .

ولا يطول تعجب نديم لأن اختنا زهرة تؤكد على ضرورة حضوره بعد إفطارنا فى المسجد الجامع وأدائنا صلاة المغرب، ولعلمنا أن ال شيخ يصلى دائما فى مسجد البرهان .

نمازح نديم كثيرا فى طريق عودتنا بعد صلاة المغرب، ونمنيه بإفطار شهى افضل من عشائنا ونفترق فى الطريق .

يواصل نديم سيره نحو بيت القاضى، وقبل أن يصلنا كامل طعامنا فى بيت الشمس، نسمع طرقا خفيفا على باب البيت الخارجى فيفتح محمود النافذة سائلا عن الطارق فاذا هو صلاح يدعونا للإفطار معهم ، وعندما نتردد مختلقين الاعذار تدخل عمتى امنة حاملة الخبز وتسمع ابن الشيخ وهو يرجونا لأن غضب ابيه سيتضاعف منه لأنه دعى نديم لوحده مع أن دعوة والده كانت لنا جميعا .

بعد تناولنا وجبة العشاء مع الشيخ جمال وولديه، نقرأ جميعا سورتى ياسين وتبارك كما يفعل الناس فى ليالى رمضان، بعدها نتململ فى جلستنا ونومىء خفية برءوسنا لبعضنا ، لكن الشيخ يقول :

– لقد سألنى أخوكم صلاح عن المسائل العقلية والنقلية للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فبسطت معتقدى ملخصا اليوم فى خطبة الجمعة ..

– فيسأله نديم :

– ألا تخشى المصريين .

– فيقول الشيخ .

– من خلال تجربتى ، أعرف كيف ، ومتى أطرح رأيى والمفروض أن المؤمن لا يخشى إلا الله، كما أن لى علاقة بمشايخ الأزهر فى المدرسة العلمية ، بل إن لى علاقة – من خلالهم – بضباط فى القيادة العربية وهم يطلبون رأيى فى بعض مسائل شرعية، ربما هم يكونون من الإخوان .!!

يتململ نديم ، ويكبر علينا الكلام ، فأحاول أن اشد طرف ثوب محمود الجالس بجوارى لإنهاء الحديث ، والخروج ، لكن منصور يسأل شيخنا :

– هل سألك صلاح عن دعوة نديم لشرب الشاى فى القهوة لأنه مسافر ؟!

– وهل لا يتم لقاء إلا فى القهوة !!؟

– ليس لنا مكان نشرب فيه الشاي .

– لكن المكان غير لائق بكم جميعا ، انتم عيال بيت الواعى ، والقهوة محل

الفارغ .

يتدخل نديم ويقول :

– قد يفيدهم وجودنا ونأمرهم بخير .

– أو معروف .

لكن الشيخ يجيب : قد قال بعضهم بجواز الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حتى وإن ظن عدم التأثير ، محتجين بقوله تعالى : «وإذ قالت أمة لم تعظون قوما الله مهلكم او معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون» وقد فهموا من هذه الأية انها أمر الله والاعتذار اليه يوم القيامة ، وهذا غير صحيح لأنهم هم الذين «قالوا» يعنى أنهم هم الذين يريدون «المعذرة» وهذه حكاية الله عنهم ، كأنهم يعتقدون أنها ستنفعهم يوم القيامة ، وكأن المسألة اسقاط واجب، وهذا سوء ظن بالله فيه من الشرك وكفر النعم والجهل والنفاق مافيه..

يقول منصور :

– لكن ماذا لو جلسنا نشرب الشاى ، ونستفيد من الاذاعة .

– وماذا تسمع فى الإذاعة ؟!

– أشياء من حق رمضان .

– مثل ماذا؟!

– مسلسل سيف بن ذى يزن ..

– تمثيلية ؟!؟

– نعم

– وماذا تستفيد منها ؟!

– اسمع عن تاريخ بلادنا .

– هل تثق فى الإذاعة ؟!!

– ...

– قل لى ماذا سمعت حتى الآن .

–أشياء كثيرة ..

– اذكر لى شيئا محددا ، هل تحدثوا مثلا عن زيارة عبدالمطلب بن هاشم مع ابنه عبدالله لتهنئة سيف على خروج الاحباش ودخول الفرس على يده ؟!

– ربما !!

– أنت لا تسمع شيئا، القصة مختلفة يا ولدى ، وما تسمعونه حكاية شعبية مصرية، كما فعلوا مع عنتر وغيره .. يكاد التاريخ أن يعيد نفسه، سيخرج الإنجليز ربما من الباب ليعود غيرهم من النافذة ..

– والمصريون ؟!

– يسأل نديم ، فيقول الشيخ :

– أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

على عبدالستار

نقضى آخر ليلة فى رمضان فى محراس السمر ومعنا صلاح، وبعض أولاد الجيران .

على ضوء ودخان فانوس مطبخ بيت الشمس، نفترش قطع الكرتون، ونلعب بعلبة الكبريت «صوفى سارق» حيث نضع على احد جوانبه علامة الوزير ، وعلي جانب آخر علامة السارق، فإذا استقامت علبة الكبريت يكون صاحبها ملكا يتوقف عن اللعب حتى يفوز احد اللاعبين بمنصب الوزير، واذا انبطحت العلبة على أحد صار هو السارق الذى يحكم عليه الملك بما يرى، وعلي الوزير الإشراف علي حرفية تنفيذ اللص للحكم، اما إذا صادف واستقامت العلبة للاعب جديد صار ملكا ، وعزل الملك الأول إذا لم تنبطح العلبة علي أحد، وقد اشترطت انا ومحمود علي اللاعبين ألا يحكم من قد يصير ملكا على السارق بزيارة (حر السود) والإتيان بأمارة ، فوافق الجميع على شرطنا المقترح ، فيخترع الملك الفائز نديم عقابا طريفا على السارق المغلوب وهو الخروج وسط ساحة الحوش المظلم، ورفع الصوت بالعواء مثل الكلب، وتكاد تفطر حناجر الموجودين فى غرفة المحراس من الضحك، بينما تنزعج كثيرا لمصدر هذا الصوت اختنا زهرة وجواهر اللتان تخلدان فى غرفة الوسط المطلة علي الحوش للنوم .

حين يجىء دورى كمغلوب ، يحكم الملك الفائز صلاح أن أقف خارج مكان سمرنا وأموء كالقطة وأنا أخربش على التراب، وارتعش من الخوف، ونسمة الريح الباردة وأنا أموء كالقطة فى ظلام حوش البيت حتى رأيت الباب يرتجف لارتجافى

، واسمع صوت سيارة فى الشارع يتوقف محركها قريبا من باب الحوش، ثم اسمع حركة وكلاما ثم طرقا على الباب الموصد فأصرخ فى اللاعبين بغرفة المحراس ان افتحوا انتم للقادمين فلا يستجيبون حتى يرتفع صوت عمى عبد الحميد طالبا فتح الباب، ومستنكرا لإغلاقه فى آخر ليلة من رمضان .

يقفز نديم لسماع صوت عمنا عبدالحميد ، ومن خلفه منصور ومحمود ليفتحوا الباب على مصراعيه حتى يتقدم بسيارته (الجبان) العسكرية ، ويطلب منهم عدم إغلاق باب حوش البيت ، ويفتح باب السيارة من الجهة الأخرى لتنزل منه زوجته ومعها ابنها بعد ان توقظه من نومه، ويبقى فى الخلف ملامح ثلاثة رجال ، ونحن واقفون لا ندرى ماذا نعمل حتى يأمرنا عمنا بإنزال حقيبة زوجته وولده من سطح السيارة، وأن يسبقه نديم لفتح باب البيت لتصعد زوجته بعد استقبال زهرة وجواهر لها لتحملا طفلها وتساعداها لأنها حامل ربما فى شهرها ، وبعد أن يسلمها عمنا للمرأتين يعود ينادى أحد الجالسين الثلاثة فى المقعد الخلفى :

– انزل يا على .

فينزل على ويسلم علينا، ويقول عمى عبد الحميد :

– هذا على عبدالستار ابن عمكم ...

فنصافح ابن عمنا الهارب منذ الأيام الأولى للثورة، ولا أحد يدرى اين ، ولماذا، وأمه تتكتم اخباره لكن أغلب ظننا أن علي عبدالستار كان فى مدينة عدن، وأنه عمل معاونا لأحد سائقى الشاحنات المتنقلة بين عدن وتعز :

– نتردد فى دعوة ابن عمنا الحاضر بعد غياب طويل، وانقطاع اخبار، ليكمل سهرته معنا فى غرفة المحراس، لكنه وهو المتعب من سفر طويل بشاله الملفوف دون انتظام على رأسه ، يقطع علينا ترددنا، ويدخل معنا مكان سمرنا بعد مغادرة عمنا ورفيقيه ، لأنه لا يريد إزعاج امه واختيه وسينتظر معنا حتى يستيقظ الجميع

لإعداد السحور قبل الفجر .

يغلق نديم الباب بعد رحيل سيارة عمنا عبد الحميد ونحن نتأمل القادم الجديد ، هذا الآتى من بعيد ، من عدن المليئة بالتجارة والهنود وجنود الانجليز الذى لا شك أنه قد عرف فيها السينما اكثر مما عرفناها ، وقد يكون يتكلم اللغة الانجليزية ، ونتأمل على عبد الستار المغامر الطائش الذى لا يبالى بسجن ابيه، وفراق أمه ونتعجب لمرآه وهو يخرج من جيبه علبة سجائر انجليزية مميزة، ويشعلها بولاعة لها فتيل تفوح منه رائحة البنزين ، ولا أحد منا له ما لابن عمنا هذا الذى نحدق فيه وهو يسحب نفسا من سيجارته (ثرى فايف) ، ويكتم نفسه، لينفثه بعد ذلك نفسا طويلا من الدخان ..

– يطلب منا ابن عمنا ان نستمر فى سمرنا، فيقول له منصور الذي له ذكريات وعلاقة قديمة معه .

– لقد كنا نلعب (صوفى سارق) .

– ويسأله نديم إن كان يذكر هذه اللعبة فيرد بالإيجاب ، لكنه يبدى تعجبا لجهلنا بألعاب عدن خصوصا اوراق البطة أو الكوتشينة التى يمكن أن نلعب بها العابا مختلفة، ويمكن أن نقضى الليل كله في لعبة واحدة، وبحركة مسرحية يخرج من جيبه أوراق اللعب ، ويخلطها ثم يبدأ فى تعليمنا الأبسط من لعبها ، فنحن فى نظره غير قادرين علي اللعب بالاوراق العابا معقدة ، كما يفعلون فى نوادى ومقاهى عدن ، وجميعنا لا ندرى مدى صحة اقواله، لذلك نتعامل معه بحذر وصمت غالب بعد غيابه الطويل فى عدن غير متأكدين ما يفعل هناك، وكيف يقضى وقته ومن هم اصحابه ، وأين يسكن وهو بالنسبة لنا يمثل حيرة وغموضا ، وربما نفك سره وغموضه فى قادم الأيام إن كان سيبقى معنا فى بيت الشمس، ومع ذلك لا نسأله عن سر مجيئه مع عمنا عبد الحميد الذى يعمل الآن ويسكن فى تعز وما

إذا كان سيسكن معنا، وهل سيزور أباه ام لا، وغير ذلك مما يخطر فى بال أبناء العمومة والاصدقاء .

لا يتناول على عبد الستار معنا طعام السحور بدعوى أنه شبعان ، وقد أكل شيئا أثناء الطريق مع عمى عبدالحميد ، وأنه لم يكن صائما بسبب السفر ، لكنه يشاركنا شرب القهوة ، ويطلب المزيد حتى أثر طلبه على نصيب كل واحد منا من القهوة ، أما نحن فنتناول لقيمات الخبز البارد مع الحلبة البيضاء الممزوجة بقليل من السمن الشجرى مع قليل من الماء الساخن المملح فى (مقلى) متوسط الحجم ، ثم نخرج مبكرين ، كعادتنا ، قبل أذان الفجر لنتوضأ فى المسجد الجامع، ونقرأ مااستطعنا من القرآن قبل أذان الفجر فى استعجال بالغ لأننا فى آخر ليلة من رمضان ونسأل بعضنا يوم العيد عن عدد مرات ختم الواحد منا لكتاب الله ونحن نحس ان بعضنا يقلب عدة اوراق دفعة واحدة حتى يلحق بمن سبقه ، اما على عبدالستار فلا نعرف ما يفعله فى هذا الشهر منذ غادر المدينة قبل بضع سنين ، كما أننا لم نستكشف بعد عالمه، كما أنه لم يأت معنا المسجد بدعوى التعب والسفر ، وأنه يريد الاستحمام أولا، وسيصلى فى البيت ليأوى الي فراشه مع امه التى تغرق فى صمتها ودموعها وخوفها من أن يفلت ابنها من بين يديها مرة أخرى حتى أنها لم تجرؤ على سؤاله عن أخباره ونواياه وماذا كان يعمل فى عدن ، وما الذى جاء به مع عمى عبد الحميد، وكيف التقى به ، ولماذا رافقه رغم سوابق عدم الانسجام بين زوجها عبد الستار وأخيه عبد الحميد منذ تخرج حماها فى الكلية الحربية قبل الثورة بعدة شهور.

بعد صلاة العصر، توقعنا ان يحضر علي عبدالستار الى ديمة مطبخ بيت الشمس ليرافق احدنا فى حمل إفطار ابيه، وكعك العيد، لكنه لم يعد إلى البيت بعد خروجه من بعد ظهر اليوم، ولا تعرف امه المسكينة كيف تبرر عدم حضوره،

وتتلقى تقريع جدتى بتول بكثير من الصمت، وقليل من الكلمات الساكنة المتقطعة المبهمة، كما أن منصور لعلاقته القديمة بابن عمنا علي عبد الستار، واستلطاف لم يزل بينهما ، وتوقع سيجارة (ثرى فايف) ، لا يتبرم او يبدى انزعاجا كعادته حينما يعلم أنه سيرافق اخاه محمود إلى سجن الردا ع، وأنا سأرافق نديم لزيارة والدى فى آخر يوم من رمضان .

– لايحتمل صدر منصور الاحتفاظ بخبر ابن عمه، فيقول لعمى عبدالستار ان ابنه على قد عاد من عدن ، وإنه عتبان ، وقد يزوره غدا ، فلا يبدى عمى كثير اهتمام بخبر ابنه، ولا يترك على وجهه اى علامة للرضى والسرور ، أو للألم والنفور، وكل ما فعله عمى عبدالستار هو أنه اخذ ما أرسلوه له من البيت ، وعاد لظلمة السجن، واثقال القيود التى قد تكون احنى – فى ظنه – من ولده وعيال اخيه، اما أنا ونديم فلا نخبر ابى إلا بوصول عمى عبد الحميد فلا يزيد علي أن يقول : سلموا لى عليه ..

***

كعادتنا بعد وجبه افطار آخر ليلة فى رمضان ، نتلو آيات سورتى ياسين وتبارك، والدعوات الأخرى غيبا، فقد حفظتها جميعا لتكرارها فى الثلاثين ليلة الماضية، بينما يخترق علي عبد الستار الحاجز الفاصل بيننا وبين نساء وبنات اهل بيت الشمس القائم حتى الآن على الاحترام والهيبة ، فيشعل سيجارة اثناء تلاوتنا ، وهو يتجاهل احترامنا لذاتنا، وافتتاننا بذلك الشعور الجميل بطاعة أمنا بتول وعمتنا اسماء، وحتى اختنا زهرة وجواهر فلا نستجيب لإغراء رائحة سيجارته مع أننا جميعا من المدخنين باستثناء محمود ابن عمى حسن، كما أننا لا نستنكر فعله إلا بنظراتنا وبعدم مشاركته التدخين ، ولو كنا معه فى مكان بعيد عن البيت لنحرمه من تصور موافقته على ماهو عليه، وهو يدرك ذلك فيتركنا قبل

أن نكمل درسنا القرآن ، لتستضيفه قهوة سمير حتى وقت متأخر من الليل .

بعد رجوعنا ابكر قليلا من الليالى الماضية لأنها ليلة عيد، نتجاهل وجود على عبدالستار فى قهوة سمير، ولا نعرف إذا كان قد رآنا أم لا، ولا يأتى عمنا عبد الحميد إلا وقد انتقلت زوجته من ديوان الوسط الى غرفتها فى الحجرة العليا التى قامت عمتى اسماء بتجهيزها ، وتنظيفها مع جواهر مع أنها الحجرة التى كانت مغلقة لأنها خاصة بعمى عبد الوهاب واولاده الغائبين ، وهى حجرة تتكون من غرفة للنوم، وحمام صغير، ومكان المنظر لمقيل محدود نادرا ما استضاف فيه عمنا عبدالوهاب احدا قبل هروبه الى نجران ليلة الثورة لعدم استقراره قبلها، فقد كان كثير التنقل بين بيت الشمس حيث اسرته ، وبين البيت الجديد جوار الإذاعة حيث أمه واخته واختنا زهرة ، مع أبى وأمى وأختى شذى ، وأنا .

قبل أن يصعد عمى عبدالحميد يعرج علينا فى غرفة نديم ولما يزل ببدلته الميرى ، ويناديه طالبا منه النزول فورا الى القهوة على ان لا يعود إلا وبرفقته ابن عمنا على عبدالستار ، على أن ننتظره جميعا فى غرفة الوسط، غرفة اختنا زهرة التى نطلب منها الانتظار في غرفة عمتى آمنة .

يدخل نديم خلف على عبدالستار الذى يبدو عليه التوتر والانفعال ، ويخرج من جيبه سجائر اخرى مصرية ، ويسحب حبة منها قليلا .. قليلا .. وهو شاخص ببصره الى اللاشىء على سقف الغرفة ثم جدارها ، لكنه يعيد السيجارة الى علبتها ، ويدسها فى جيبه، ثم يشبك اصابع يديه، واضعا لها كرباط لساقيه المرفوعتين وهو يجلس القرفصاء فى انتظار عمنا عبدالحميد الذى نسمع خطوات نزوله بحذائه المتميز، ويطل علينا ومازال فى بدلته الميرى، ودون أن يدخل يشير وهو واقف عند الباب بإصبعه لعلى عبد الستار أن تعال، فينهض على ، ويمسك عمنا بأعلى ذراعه ، ويسحبه للخارج ونحس انهما لايزالان قريبين فى دهليز

الحجرة السفلى، ولا نسمع إلا همسا كأنه من طرف واحد نظنه لعمنا الذى لا يعود إلينا بل يصعد إلى زوجته وولده ، ويعود ابن عمنا على وقد اصفر وجهه، وجحظت عيناه حتى زاغتا دون أن ينبس بكلمة واحدة ..

نتفرق فى قلق شديد، لنتجمع امام باب الحجرة الوسطى، وعلي ضوء غرفة اولاد عمتى آمنة ، نتهامس وقوفا، عسانا نعرف شيئا مما جرى لكن نديم يفرقنا مرة أخرى، قبل أن يحس أحد بفضولنا الذى لا يدرى عاقبته لو استمر لحظة اخرى وحالما أهم بالصعود الى غرفتنا ، نسمع باب البيت يفتح ، ثم يغلق ويطل احدنا من نافذة الحجرة ليرى شبح على عبدالستار يغادر باب الحوش، دون أن يغلقه الى حيث لاندرى.

نلاحظ بعد انقضاء ايام العيد تردد صالح مهدى زوج ابنة عمى عبدالستار الكبرى على عمتنا سمية زوجة عمى عبدالستار وطول وقت لقائه بها خلف ابواب مغلقة حتى عن ابنتيها الأخريين، ويتناهى الى علمنا فيما بعد أن زوجة عمنا عبدالستار قد استجابت لضغوط ابنها على وزوج ابنتها صالح وفوضتهما فى مقاضاة عمها للحصول على ارثها من نصيب أبيها فى أموال وعقار جدهم الكبير، لكن يبدو ان الامر كله كان مجرد ضغط على ذلك العم ليدفع شيئا لعلى عبدالستار ليحقق به غرضا نكتشفه بعد حين، ونفاجأ بأنه افتتاح مقهى كبير فى مرآب قديم فى منطقة خارج المدينة عي طريق المسافرين للحديدة ، ويؤم هذا المقهى ضباط، وجنود، وبائعو قات، ومخبرون ، وسائقو سيارات نقل مغامرون تعرف عليهم ابن عمنا بطرق شتى، وهو يظن أنه بافتتاحه هذا المقهى سيحقق مكاسب مادية، ويساعده علي تأمين حاجاته ، ودفع أى مكروه قد يأتى من عمه عبدالحميد الذى سافر فجر ثانى أيام العيد دون أن نراه، ونظنه قد عهد الى زوجته ان تعطى كل واحد منا نقود معايدة ، فقد قالت إنها من عمنا ، والواقع ان كل ما اعطتنا زوجة

عمنا ناجية كان من المصروف الذى تركه لها عمنا لتواجه به مصروفات وتكاليف ولادتها المتوقعة خلال مدة قريبة، فهى فى شهرها كما تقول النساء وقد تلحق بأمى قريبا .

أرادت ناجية زوجة عمى عبد الحميد اغتنام فرصة العيد لتنقدنا عيدية مميزة حتى نألفها ونشعر بمودتها ، ونحسن لها ولولدها، فتطمئن إلى أن حاجتها مقضية فيما لو اضطرت لخدمة يقدمها أى أحد منا ، فهى لا تعرف حتى الآن أى اربعتنا سيكون أفضل لها فى المساعدة إذا ما احتاجت لشىء قد لا تقدر عليه النساء .

تغرينا نقدية العيد بما زاد عليها من عطاء عمتنا ناجية بالبحث عن مصروف متميز لها ، لا يطول بحثنا فقد جاءنا منصور ثالث ايام العيد بالنبأ اليقين عن عرض فيلم لفريد شوقى الممثل الأكثر تفضيلا عند منصور لكن نديم يرفض مرافقتنا فما الداعى بالنسبة اليه لمشاهدة فيلم لفريد شوقى وهو مسافر عما قريب إلى القاهرة كما أبلغته ناجية علي لسان عمنا، وسيقابل فريد شوقي شخصيا هناك، وبعد مرور اكثر من ثلاثة اسابيع تلد عمتى ناجية ابنها الذى لا تعطيه اسما حتى يحضر ابوه فهو وحده من سيسميه مثلما سمى ابى أختى الثانية بشرى، فيضيق علينا البيت بالداخل والخارج من نساء لا عدد لهن ولا لمرات زيارتهن ولا وقت لتلك الزيارة ، والعادة التى نعرفها هى اربعون يوما للمرأة التى تلد حتى يوم وفاء زيارات النسوة لها .

بعد يومين يصل عمى عبد الحميد ليطمئن على زوجته ، ويسمى مولوده الجديد «عبدالوهاب» على اسم اخيه الذى يقيم فى حجرته ، ويبلغ نديم أن عليه الاستعداد للسفر الى القاهرة ، ويسلمه الأمر بالسفر على إحدى طائرات المجهود الحربى مع بعض زملائه الذين سيكون نديم مسؤولاً عنهم حتى وصولهم القاهرة ، والتحاقهم

بجامعة الأزهر .

وفى ليلة تالية يخبرنا عمنا ، ونحن نسامره فى ديوان الوسط ، قبل عودته لمقر عمله فى تعز أنه قد علم بأمر المقهى الذى فتحه على عبد الستار ، ويطلب من منصور - بحكم علاقته بابن عمه - أن يذهب إلى القهوة من وقت لآخر ، ويشرب الشاى ، ويلعب الدومينو ، لأن ذلك فى نظر عمنا سيجعل الولد يحس بارتباط على نحو ما بأسرته ، ويذكر عمنا أن المقهى عنده أهون كثيراً من عمل معاون سائق شاحنة لأن فيها عامل استقرار نسبى يجعلنا أقدر على الاتصال بابن عمنا ، وأعرف بأخباره ، وأنه لولا المصادفة وحدها لما عرف عمى أن ابن أخيه يتنقل بين عدن وتعز ، وأن معرفته تلك كانت بسبب أن بعض تجار مدينتنا الذين يزورون عدن ، ويتوقفون فى تعز لبضعة أيام قد أشاعوا خبر ابن الواعى الذى يعمل حمالاً ومعاوناً لسائق شاحنة حتى يؤثروا على سمعة ومكانة عمه فى تعز ، وأن هذه الإشاعة قد تكون بترتيب وإيعاز مخبرين يعملون مع الإنجليز فى ميناء عدن .

وتبدأ أول زيارة لنا مع منصور مشياً على الأقدام إلى مقهى على عبد الستار البعيد عن المدينة ، فلا نصل إليه إلا قبل المغرب بقليل لوقوعه قبل نقطة عصر ، لكن الوقت فى المقهى يمضى بسرعة حيث نقضيه فى اللعب والضحك والمزاح والأحاديث ذات الشجون مع على عبد الستار ، ونعجب كيف استطاع فى زمن قصير إقامة علاقات جيدة مع ضباط وجنود يمنيين وسائقى شاحنات يعملون بين تعز والحديدة وعدن ، ويحملون أحياناً طلبات خاصة بضباط مصريين عن طريق على عبد الستار الذى أصبح وسيطاً لبعض الكماليات من عدن التى مكث فيها سنوات عديدة ليبيعها من أولئك الضباط المصريين ويشترى منهم سجائر سوبر وعادى وبعض المواد الغذائية ، وفانيلات صوف عسكرية ليبيعها بعد ذلك من زبائنه اليمنيين ، وهكذا حتى كسب كثيراً من المال ، ولولا إسرافه لكان الآن من الأثرياء المعدودين .

كان رواد القهوة - رغم قلة عددهم فى الوقت الواحد - لا ينقطعون ، وقد

استطاع على عبد الستار أن يقنع سمير بإغلاق قهوته في شارع ٢٦ والعمل معه ، وكان يجزل له العطاء ، وذات خميس سمعنا صوت العرب وهي تنيع لمحمد حسنين هيكل مقالته بصحيفة الأهرام ، وكنا نصفق كثيراً رغم عدم فهمنا للكثير مما تقوله الإذاعة ولانشغالنا بألعاب الدومينو ، وشرب الشاى المجانى الممزوج أحياناً باللبن الهولندى كوننا ضيوف ابن عمنا مرة أو مرتين في الأسبوع ، وقد تعلمنا في هذه القهوة الواسعة ، المتعددة الزوار ، البعيدة المكان ، الكثير من الألعاب والمعلومات عن مصر وأهلها ، ولم نكن نبالى كثيراً بوقت الصلاة فلا جامع في الجوار القريب ، ويمر الوقت ونحن نلعب الورق أو الدومينو ، ونشرب الشاى ، ونستمع لآخر النكتات خصوصاً المصرية التى يحكيها سمير أو على عبد الستار أو يؤلفها إذا لم يسمع شيئاً جديداً من الجنود المصريين .

كانت مرافقتى لمنصور أكثر من مرافقة محمود والآخرين ، وكان لى مقابل ذلك نصف حبة سجائر كيلوباترا سوبر بعد أن يشعلها ثم يسلمها لى وهو مشغول بصراع لعبة الدومينو مع الأفندم ناجي من نقطة الصباحة الذى يقضى بقية نهاره معنا في شرب الشاى ولعب الدومينو فى مباريات المئة وواحد بنط التى لا تنتهى إلا بالشجار ، أما الشطرنج فقد كان ملكاً لأحد صغار المقاولين نوى العلاقة ببعض الضباط اليمنيين ، ولا أحد يذكره أو يهتم به إلا عند حضوره بين اليومين أو الثلاثة ، وما كان الحاج لطفى يحضر إلى القهوة إلا ويمتد سمره إلى ما بعد منتصف الليل ، خصوصاً إذا كان معه أو مع أحد غيره ربع أو نصف زجاجة ويسكى ، ويكتمل نصاب الساهرين عند حضور سمير بطبق اللحم الصغار من مطعم اليسر ومغادرتنا قبل الساعة الثامنة على إحدى الشاحنات التى يتوقف سائقها للشرب والراحة أو لملء خزان الماء إذا فار فى خزان شاحنته ، أو لإصلاح إطار سيارته ، ونقطع ما تبقى من طريقنا من الجولة حتى البيت مشياً ، فلا نصل إلا وقد نام الجميع ما عدا أمى وأم منصور ، لكننا رغم تأنيبهن لنا ، ورغم وعودنا المتكررة بعدم التأخير مرة أخرى ، نعيد الكرة نهاية الأسبوع ، والمهم تصديقنا بأننا صلينا .

آخر نهار يومنا هذا الخميس ، يقبل إلى المقهى الحاج لطفى المقاول ويرفقته صديق له ، وضابط فى نقطة الصباحة سبق أن تعرفنا عليه لماماً ويبدو أنه أعلى رتبة من صاحبنا ناجي الأكثر حضوراً ودواماً في القهوة ، ومعهما العسكرى المرافق للضابط صديق الحاج لطفى .

يقفز على عبد الستار المقيل فوق دكته مرحبا بالحاج لطفى وضيفه ويقول :

- شرفتنا اليوم بدرى يا حاج .. هل أحضر لكم الشطرنج وأعمل شاى مخصوص ؟

- لا بدرى ولا حاجة ، معى اليوم ضيف ، هل الموضوع جاهز ؟!

- نص من الصنف الذى يعجبك

- جهز عشاء أربعة أنفار من غيرك ومن معك

- لكم عندى ضيافة ، ألن ترتاحوا قليلاً ؟!

لكن رجل النقطة يقطع الحوار ليسأل الحاج لطفى :

- هل هذا هو الذى كلمتنى عن أبيه ؟!

ويقول الحاج وهو ينظر إلى على عبد الستار :

- هل لا يزال أبوك فى الرادع ؟!

يقول على :

- اسال منصور ابن عمى ..

فيلتفت منصور ، ويقطع انشغاله باللعب ويقول :

- طبعاً لا يزال عمى في السجن .. لم يخرج ولا مرة واحدة مثل عمى محمد ..

يعود ضابط نقطة الصباحة ليقول :

- غداً أو يوم السبت بالكثير سأعطى الحاج أمر الإفراج عن أبيك ، قلت لى يا حاج ما اسمه ؟!

- عبدالستار .. عبدالستار على الواعى.

– من ذرية ناصر بن الحسن ؟!

– نعم

– كم مكث فى السجن .

– من ثانى يوم للثورة .

– وما تهمته ؟!

– نسبهم ، والعمامة !!

– المعممون يتوالدون هذه الأيام .. على كل حال قل لأبيك لو خرج من السجن يخلع العمامة ، ويلبس كوفية المعرقة البيضاء ، أو يلونها بألوان العلم الجمهورى مثل طلبة مدرسة الأيتام .

ويبتسم على عبدالستار لضحكة الحاج لطفى المرتفعة ، ويشير إلينا بيده ويقول :

– هذه أهم نصيحة يا منصور ..

فلا يرد منصور ، فيقول لى على عبدالستار :

– لاتنس أن تبلغ أبوك وعمك يا ابن عمى ..

ويمسك الحاج لطفى بيد رجل النقطة المسؤول ويقول قبل أن يرحلوا :

– المهم يا على العشاء عندك الليلة ، وسمرنا بدون دوشة عيال ، ضيفنا يحب الصحبة الخفيفة ، والنكتة اللطيفة ، جهز لنا المسجلة ونكات مصرية جديدة .

وينهض منصور قبل غمرات الليل فقد فهم إشارة ابن عمنا الذى يزوده بحبتين من السجائر السوبر لزوم الجمعة ، ومداراة لمشاعر انصرافنا قبل موعدنا المعتاد بكثير .

* * *

فى صباح يوم السبت المبكر ، يلتقى منصور بعد خروجه من البيت ، وهو يمد يديه ليدفئهما تحت أشعة الشمس قدام القهوة القديمة لسمير ، الحاج لطفى

المقاول الذى يقول له :

– بلغ جدتك أن عمك عبدالستار سيتناول طعام الغداء اليوم معكم فى البيت .

فيرد منصور على الحاج لطفى الذى يخاطبه من نافذة سيارته اللاندروفر العتيقة :

– معنى هذا أن لانحمل إلى الرادع وجبة الغداء كالعادة ؟!

فيجيبه الحاج :

– يبدو أن فهمك بطىء يا منصور ، قل لها ما قلت لك وبس .

فيرجع منصور لموقعه ليتدفأ بأشعة الشمس فى انتظار أخيه محمود ، بينما تنطلق سيارة الحاج لطفى إلى غايتها ، وعندما يظهر محمود ، يقول له منصور :

– ارجع يا بطل لجدتك وقل لها إننى لن أحمل اليوم طعاما لعمى عبدالستار.

– لماذا ؟!

– لأنهم سيطلقونه اليوم من السجن .

– من هم الذى سيطلقونه ؟!

– عليك إبلاغها فقط ، فما على الرسول إلا البلاغ .

– هل هذا الخبر من رأسك ؟!

– من رأسى أو من قفاى ، لا دخل لك .

– إذا كنت تريد لى مشكلة فلست مغفلا لأنفعك .

– ستقع المسئولية عليك إذا لم تبلغهم فى البيت بما قلت لك .

– بل عليك أنت حتى تقول لى من أين أتيت بالخبر .

– من الحاج لطفى المقاول ، الذى وعد ابن عمك على عبدالستار بإخراج عمك من السجن .

– وما أدراك أنه وعد على عبدالستار ؟!

– ها أنت تعاود فضولك المعروف ..

يقولها منصور وينهض ، فقد أخذ قسطا كافيا من دفء الشمس ، ويقترب من أخيه ، ثم يمسك بثوبه من صدره وهو يقول له متوعدا :

- هل ستفعل ما قلت لك ، أم أنك بحاجة لكفين أدفيء بهما خداك ..

* * *

نهرع جميعا لاستقبال عمنا عبدالستار حال وصوله بعد ظهر اليوم على سيارة اللاندروفر العتيقة ، فلا يبدى كثير انتباه لظهورنا فرحين بقدومه ، ربما لعدم توقعه هذا الذى حصل بعد سنين مريرة من سجن لايدرى له سببا على عكس أبى الذى كان على علاقة وثيقة بالأمير القتيل ، بل وكان على معرفة وعلاقة جيدة بأصحاب الأمير من ضباط الثورة ، ويتحرك عمى عبدالستار ولازالت آثار القيود - التى تحرر منها - بادية فى مشية ساقيه الغليظتين القصيرتين ، وحين نهم بمرافقته ينادينا الحاج لطفى أن تعالوا لتحملوا ضيافة على عبدالستار لأبيه ، كيس قمح وكيس دقيق بابورى ، وكرتون فول مدمس ، فنتعاون على حملها ، مسرعين خلف عمنا الذى تستقبله عمتى أسماء فينحنى ليقبل ركبتها ، لكنها كعادتها تتلقف وجه أوسط اخوتها بكفها ، وتمسك رأسه المعصوب بشال قديم ، متآكل الألوان بالكف الأخرى ، لكن جدتى بتول الواقفة على تنورها وقد كبر وعاء عجينها ، وزاد خبزها تحسبا لمن قد ينزل ضيفا على ابنها ، تبقى الأكثر تأثرا لخروج ابنها من السجن ، وتنتظر حتى يدخل ديمتها عمنا عبدالستار الذى يربض على الأرض لاثما قدماها ، ومنتحبا بحرقة الفراق المضنى لأكثر من أربع سنوات من السجن المتواصل ، بينما يقف منصور على باب المطبخ ليمنعنا من الرؤية أو الدخول ، واضعا كفه خلف ظهره ، ليشير لنا بحركات أصابعه ويؤكد على أنه لن يتحرك مع أحد بالطعام إلى القلعة لأن مهمته قد انتهت ، وأن نديم الذى سافر بالسلامة قد أوصاه أن يواصل محمود وإبراهيم مهمة ايصال طعام سجين القلعة ، وعلى منصور وحده الاهتمام بسجين الرادع ، وها هو قد أطلق سراحه ، ويكون

له ما يريد ، فأحمل خبز أبي ويحمل محمود سفرطاس الحلبة والخضار والمرق ، وأحس لأول مرة أن في عيني أبي سعادة حقيقية حين يعلم بخروج أخيه من السجن ، وأرى في شفتيه تمتمة دعاء وهو يتابعنا بنظره حتى غادرنا البوابة الكبيرة للسجن .

أعود أنا ومحمود من مهمتنا ، فنجد أن منصور وعمي عبدالستار مع أصغر بناته ، وزوج ابنته الكبرى صالح مهدى قد تناولوا طعام الغداء ، وهم الآن يرشفون القهوة في فناجين الصيني ، فلم ينتظروا للمتأخر كما هي عادات أهل هذا البيت .

يسأل عمي عبدالستار زوجته التي تقدم على عجل بقية طعامهم لي ولمحمود ، إذا كانت بنات عمي عبدالوهاب لايزلن في بيت خالهن في القرية فتقول له :

– عافاك الله ، لقد لحقوا جميعا مع خالاتهم وبناتهن بجدة إبراهيم وخالاته .

– يعني لم يبق إلا أنا وأنت ؟!

فتهز رأسها بالإيجاب ، وينظر عمي في رحلة صمت قصيرة إلى القنديل المتدلي من سقف غرفة الوسط ثم يقول:

– وهذا سراج أخي عبد الحميد!! كم تدفعون قيمة كهرباء في الشهر؟!

– اسأل أختك أسماء لأنها تدفع نصف المبلغ ..

– والنصف الثاني؟!

– قال أخوك عبد الحميد إن الحكومة تدفع النصف الثاني لأن الفواتير تصدر باسمه ..

– كيف ؟

– إسأل أختي أسماء فأصل الاتفاقية معها، وهي باسم أخيك عبد الحميد.

– بارك الله فيكم أجمعين!! وكيف ترضى أختي بهذا التحايل؟!!

– هذا الاحتيال؟!؟!

يتدخل صالح مهدى صهر عمى عبد الستار ويقول:

– أحمد الله يا عم لأنك لن تدفع شيئاً ...

فيلتفت نحوه عمى ويضع أصابعه على جبين صهره ويقول ساخراً :

– هل أنت محموم؟!

– لا، لماذا ؟!

– هل تعلم أن أخى قد عمل اتفاقية الكهرباء باسمه ليقول للناس غداً إن بيت الشمس ملك له، خصوصاً وقد اختفت وثائق أموالنا مع كل الأشياء الأخرى التى اختفت بعد هروب أخى عبد الوهاب ..

وحين لم يتكلم أحد يواصل عمى عبد الستار الكلام ويقول:

– يجب أن نقطع أسلاك هذه الكهرباء .. بيتنا أغلى مليون مرة من نصف ريال أو ريال باسم أخى عبد الحميد نهاية كل شهر، فيقول صالح صهر عبد الستار:

– يا عم المقيل عندى .. يجب أن تنسى الآن كل شئ حتى تجلس مع أهلك وأحبابك الذين افتقدوك كل هذه السنين، القات حقك جاهز، وسجائر من الذى تحب ..

ويتوقع منصور دعوته للمقيل فى بيت صالح مهدى، ولما لم يسمعها يظل لصيقاً قدر الإمكان بصالح زوج ابنة عمه مها، وتارة بعمنا عبدالستار، باذلاً أقصى جهده ليشعرهم بوجوده فلا يغادرون إلا وهو معهم للمقيل حيث دعاهم صهرنا المبجل، ويقضى محمود بقية النهار معى؛ فلا نعود بعد صلاة العشاء إلا وقد شرع منصور وعمى عبد الستار فى تناول طعام العشاء فى غرفة عمنا المقابلة لغرفة عمتى أمنة فى الحجرة المشتركة الوسطى، فنلحق بما يمكن من الطعام والقهوة، ونحن فى قلق غامض من مجئ غد لا نعرف أو نقدر ما يخبئه لنا من تقلبات عمنا عبد الستار

* * *

حتى بعد انقضاء عدة أيام، وإلى يومنا هذا، وعلى عبد الستار يخشى زيارة أبيه فى بيت الشمس، لأنه لو لم يفاجأ بحضور عمى عبد الحميد فلن يفلت من محاسبة أبيه له على ما أخذه من عم والدته، وعلى استئجاره محلاً ليفتح فيه قهوة لا يرضى عنها أحد كما يتصور، كما أن صهره صالح مهدى ينفى تماماً علاقته بمسألة القهوة وكأنه يتبرأ منها، كما أن عمى عبد الستار يتجاهل الطلب المتكرر لزوجته سمية بزيارة ابنها الذى لا تعرف شيئاً عن أحواله خصوصاً وأن فى البيت لم يبلغه أننا نقضى أوقاتاً فى القهوة، ونزور ابن عمى، ويكرمنا بضيافته بالشاى واللعب المجانى وأحياناً تناولنا الفول المدمس المطبوخ فى قهوة على عبد الستار إذا ما غاب عليه القوم من زبائنه وزواره .

من أول يوم كان تركيز عمنا عبدالستار على أخيه عبد الحميد، واتهامه بمحاولة تملك غير شرعى لبيت الشمس الذى لم يزل مشاعاً بين الجميع وذلك حين عمل اتفاقية توصيل الكهرباء وفواتيرها باسمه، ومروراً بتقربه من أخيه عبد الوهاب الغائب بإطلاق اسمه على وليده الجديد مع معرفة عبد الستار بحميمية علاقة أخوية عبد الحميد وعبد الوهاب الذى شجعه على دخول الكلية الحربية، وزوجه بابنة هم زوجته، وله عليه أفضال أخرى كثيرة، لكن عمنا عبد الستار يتجاهل كل تلك المسلمات فيضيف لدعاويه مسألة سكن زوجة عمنا عبد الحميد فى حجرة ابنة عمها، وأخيه الغائب.

ويوم يصدر قرار نقل عمنا عبد الحميد لقيادة فرقة مدرعات ترابط بقرب المطار القبلى للمدينة بسبب انسحاب الجيش المصرى بعد حرب يونيو مع إسرائيل، يقرر أن لا يدخل المدينة إلا بعد أن يرسل من يستأجر بيتاً مناسباً لسكناه مع زوجته ووليديه، فلا يدخل بيت الشمس إطلاقاً إلا بعد فترة من الوقت فى زيارة خاطفة لجدتى بتول، وعمتى أسماء، دون حتى سلام، أو أقل كلام مع عمنا عبد الستار، وحين ينتهى عمنا عبد الستار هذا من متاهة عمى عبد الحميد التى لم يجد لها

مدخلاً، أو طرف خيط ليمسك به، يوجه أنظاره نحونا، فمرة يدعى بأن (دينمو) مكينة الخياطة التى تستعملها أمى تستهلك الكثير من الكهرباء، وعندما لا يوافقه أحد على فصل الكهرباء عن حجرتنا لأنه لا يساهم فى سداد فاتورة استهلاك الكهرباء، يتعمد فصل الكهرباء عن البيت بأكمله من المفتاح الرئيسى خلال ساعات غيابه حتى يعود، فلا نجرؤ على تشغيل مكينة الخياطة بالكهرباء وهو موجود، لكننى أتعلم كيف أعيد التيار فى غياب عمى عبد الستار ولو لفترة بسيطة، وأتفق مع أمى على عدم استخدام المكينة بالطاقة الكهربائية إذا كان عمى موجوداً، فأنا أعرف مواعيد عودته وأراقبه قبلها من وراء ستارة نافذة غرفتنا حتى لا تثور ثائرته حين يرى أننا نتحداه بإعادة التيار الكهربائى لتستخدمه أمى فى حياكة ملابس نسائية نستفيد من عائدها فى تغطية مصاريفنا الخاصة .

وتارة أخرى يلاحق عمنا عبد الستار عمتى أسماء بالأسئلة عن سلة اللؤلؤ الذهبية الصغيرة التى تراها زوجته مدلاة صدر أمى لأنه يريد أن يشترى لزوجته مثلها، لكنه لم يجد مثلها فى السوق، وعندما تؤكد له عمتى أنها مرسلة من جدتى أميمة من بيروت كهدية بمناسبة المولودة بشرى، وسلامة أمى بعد ولادتها، يحاول أستفزاز عمتى بإنكار إفادتها عن هذه السلة، وأنه يعرف أن مصدرها عمتى أسماء نفسها، مدعياً أنها تفضل زوجات عبد الحميد وعبد الوهاب ومحمد على زوجته وإلا لكانت أهدت روجته مثلها، ورغم ذلك كله فقد عاد عمى عبد الستار لهوايته القديمة بتشغيل مضخة الماء الكبيرة التى تعمل بالنفط، يساعده فى ذلك منصور ومحمود، وأنا معهم كلما التقانى صباحاً عند خروجى إلى المدرسة أو ظهراً بعد عودتى من السجن، فنسحب معه سير المضخة الموصول بالأنبوب الضخم ورافعة الماء من فتحة البئر حيث يتدفق الماء فى حوض مرتفع غير مغطى ومنه إلى بركة غسيل الثياب أو خزان أرضى من الأسمنت تم وضعه جوار بيت الشمس، ومنه يتم ملء صفائح أوعية مختلفة تحملها زهرة وجواهر إلى حوض

المطبخ، وأوعية حمامات البيت الأخرى.

★ ★ ★

في شهر نوفمبر يحصل انقلاب على نظام المشير السلال وهو في زيارة لبغداد، ويهتم الفريق العمري بموضوع أبي حتى يتم الإفراج عنه، وعصر اليوم تولول أول قذيفة قرب مبنى الإذاعة لتعلن أول أيام الحصار، وتبدأ طوابير الناس للحصول على الكيروسين والسكر والقمح مع قذائف الملكيين المحاصرين للمدينة، ويسقط مدنيون هنا وهناك، ويرابط عمي عبد الحميد في مواجهة قوة فرقة الغزاة شمال المدينة التي قد يكون من بينها عمي عبد الوهاب

★ ★ ★

عندما يبلغ عمي عبد الحميد نبأ سقوط أبي، ومقتله في بئر بيت الشمس، يستند خائر القوى، والغبار يغطي كل جسده حتى رموش عينيه على ظهر إحدى دباباته المجنزرة في آخر أيام الحصار ثم يتنهد وهو ينظر نحو مغرب الشمس أعلى قمة جبل عيبان ويقول :

- لقد قتله عبد الستار .....

رقم الايداع : ٩٣٩١ / ٢٠٠٤
I.S.B-N
977-07-1045-8

هذه الرواية

فى هذه الرواية يسترجع الأديب اليمنى د. إبراهيم إسحق ذكريات طفولته التى واكبت أحداث قيام الثورة اليمنية عام ١٩٦٢ وتأثير أحداثه على الجانب الآخر أى على المحسوبين على النظام الملكى وكان منهم والد الراوى وأسرته.

وبشجن عميق يروى الكاتب تأثير القبض على والده بعد قيام الثورة والاستيلاء على منزل الأسرة والحياة الصعبة والظروف القاسية التى مرت بها هذه الأسرة مع رصد الحياة الاجتماعية للأسرة اليمنية خلال ذلك كله.

وتنتهى الرواية بقيام حكم الفريق العمرى وسقوط حكم المشير عبدالله السلال لتنتهى مرحلة وتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ اليمن وفى حياة الكاتب .

والرواية على حد تعبير د. إبراهيم إسحاق مؤلف هذه الرواية ليست سيرة ذاتية ولا تؤرخ أحداث الثورة اليمنية والوجود المصرى العسكرى، لكنها مع ذلك يمكن أن تكون ضمن مقولة الكاتب الروائى العظيم تولستوى: على المرء أن يكتب فقط حينما يترك قطعة من لحمه فى المحبرة، فى كل مرة يغطس قلمه فيها.